علمُ الخواطرِ كما يصوّره الإمامُ الغزاليُّ

(ت٥٠٥هـ)

إعداد الدكتور

أحمـــد جمـــــال أحمـــد إسماعيـــل

مـــدرس العقيدة والفلسفـــة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعـــة الأزهر

علمُ الخواطر كما يصوّره الإمامُ الغزاليُّ (ت٥٠٥هـ)

أحمد جمال أحمد إسماعيل الأكرت
تخصص العقيدة والفلسفة، قسم أصول الدين،كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر
البريد الإلكتروني: mostafagamal888@gmail.com

الملخص:
يعدّ علم الخواطر من أهمّ علوم الباطن؛ لما له من أثر كبير في تحديد مسار الفعل الإنسانيّ، لذلك أولى علماء الصوفية هذا العلم عناية فائقة، وأفردوا له مكانًا كبيرًا في مؤلفاتهم، ومن بين هؤلاء العلماء: الإمام أبو حامد الغزالي. وتحدث الغزالي عن الخواطر حديثًا يبدو فيه أثر السادة الصوفية، وكانت له جهود كبيرة ومساع مشكورة وإضافات تميز بها عن سابقيه في هذا المجال، وعلى الرغم من أنه لم يفرد كتابًا مستقلًا في هذا الجانب إلا أنني بعد البحث وجدتُ له آراء منتشرة في بعض كتبه، كإحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، وروضة الطالبين.
فكانت هذه دراسة تهدف إلى إبراز هذا العلم عند الإمام الغزالي، تناولت فيها تحديد مفهوم الخواطر، وبيان محلها، وكيفية التمييز بينها، وواجب العبد تجاهها، ثم بيان ما يؤاخذ به وما لا يؤخذ به، متبعًا في ذلك المنهج التحليلي الاستنباطي.
الكلمات المفتاحية: الخاطر ،الغزالي، التصوف، الباطن،العقيدة.

The Science of Phantasm as delineated by Imam Al- Ghazali (died in 505 A.H.)

By: Ahmed Gamal Ismail Al- Akrat
Assistant Professor of Islamic Creed and Philosophy
Department of Osoul Al- Deen
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo
Azhar University

Abstract

The science of phantasm is the most important science of the unconscious for its great influence on specifying the mainstream of humanitarian response. Therefore, the Sufi scientists gave great priority to this science and assigned a large space to this science in their literary output. One of those scientists is Imam Abu Hamed Al- Ghazali. Al-Ghazali handled phantasm in one of his speeches in a way which showed the impact of the pioneering Sufis. Al- Ghazali is also well-known for his great and praiseworthy efforts as well as his distinct addition which made him distinguished in such a field. Although Al- Ghazali has not assigned a separate book in this respect, the researcher managed to trace his views as spread across some of his books such as '*Ihyaa Oloum Al- Deen*' (Reviving the Sciences of Religion), *'Manhaj Al- Abedeem'* (The Discipline of the Worshippers) and *'Rawdhat Al- Talebn'* (The Orchid of the Seekers). The main idea of this research is to display the importance of this science for Imam Al-Ghazali. The researcher has handled the idea of specifying the concept of phantasm, its importance and the differences that may separate a variety of phantasms. It also highlights the duty of the worshipper towards phantasm showing what can be relied on and what can be disregarded. The research applies the deductive analytical approach.

Keywords: phantasm, Al- Ghazali, mysticism

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله القائم على كلّ نفسٍ بما كسبتْ، الرّقيب على كلّ جارحةٍ بما اجترحتْ، المطّلع على ضمائر القلوب إذا هجستْ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجتْ [١]، الحمدُ لله أحاط بكلّ شيءٍ علم- ا، وأحصى كلّ شيء عددًا، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمّدٍ ﷺوعلى آله وصحبه، ومَن تمسّك بسنّته إلى يوم الدّين.

أمّا بعد،،،

فهذه كلماتٌ ألحّتْ على خاطري لتلقي الضّوءَ على علْم من أهمّ علوم الباطن [٢]، يعدّ هذا العلم من أوّل الآثارِ الحاصلة في القلبِ، ومن خلاله يتمكّن الإنسان من معرفة خواطره وخفايا باطنه، ويستطيع التّمييز بين الصّحيح منها والفاسد، وال- محمود وال- مذموم، وهو علم مِن الأهميّة بمكان للعبد بصفة عامّة، وللمريد [٣] بصفة خاصّة؛ إذ بصحّته يصحّ الفعل، وبفسادِه يفسد الفعل، ألا وهو **علمُ الخواطرِ**.

ولمّا كان هذا العلم يتعلّق بأعمال القلب وخلجاته وهواجس الباطن وأسراره، والتّمييز بينها، وهو أمرٌ لا يقدر عليه إلا المتخصّص المتبحّر في علم الباطن ممّن **"اتّصف بنورِ التّقوى؛ إذ هو مفتاح الكشوفات، ونورِ البصيرة النّافذة المؤيّدة باليقين، وغزارةِ العلم**

---

(١) جزء من مقدمة كتاب (المراقبة والمحاسبة)، وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، (٣٩٣/٤)، دار المعرفة–بيروت، بدون ت.

(و)الاختلاج: هو الانتزاع والاجتذاب. (لسان العرب، (٢٥٦/٢)، مادة: خلج).

(٢) أي: علم أعمال الباطن، التي هي على الجارحة الباطنة، وهي القلب (ينظر: اللمع، السراج الطوسي، (ص ٤٤)، ت.د/عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي، دار الكتب الحديثة-مصر، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م).

(٣) المريد: هو الذي صح له الابتداء، وقد دخل في جملة المنقطعين إلى الله بالاسم عن نظرواستبصار، وشهدت له قلوب الصادقين بصحة إرادته، ولم يترسم بعد بحال ولا مقام، فهو في السير مع إرادته. (ينظر: اللمع (ص٤١٧-٤١٨)، معجم مصطلحات الصوفية، د/ عبد المنعم الحفني، (ص٢٤٢)، دار المسيرة-بيروت، ط/٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

ووفرته" [١]، فقد اعتبره الإمام **الغزاليّ** [٢] مِن **"أغمضِ أنواع علومِ المعاملةِ"** [٣].

ومِن هذا المنطلق شـمّر علماءُ التّصـوّف الإسـلاميّ عن سـاعد جدّهم، يبغون قراءتَه ودراستَه، ويرومون حقيقتَه ومعرفتَه، كلٌ بقدر ما رزق منه، وبحسب ما وفّق له من حسن العمل، وقد جعلوا القرآن الكريم والسـنّة النبويّة نصْـب أعينهم، غايتُهم تصـحيح أعمال القلب وما يترتّب عليها، فقدّموا دراسـات مسـتفيضـة حول خواطرِ القلوب ووسـاوسِـها، باعتبارها بداية الأعمال، ومنشأ الأفعال، فشكر الله سعيهم، ورحم كافّتهم.

وقد بان لي أنّ هذا العلم - **علم الخواطر** - قد اكتمل واسـتوى على سـوقِه على يد الإمام أبي حامد **الغزاليّ**، ذلكم الصوفيّ، التربويّ، عالِم النّفس الإسلاميّ، الذي كان له قدمٌ راسـخة في هذا العلم، وأسـهم فيه بحظٍ وافرٍ، حيث ظهرتْ براعته في التّحليل والعرض والخطاب، مسـتفيدًا من تجارب أعلام التّصـوف السّـابقين عليه، ما لبث بين الفينة والأخرى يحيل على آثارِهم [٤]، ومستعينًا في ذلك أيضًا بخبراته العلميّة وتجاربه الروحيّة؛ إذ

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣٠/٣)، إتحاف السـادة المتقين بشـرح إحياء علوم الدين، محمد الزبيدي، (٢٧٢/٧)، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(٢) الإمام أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمّد الغزاليّ، الطوسيّ، الشـافعيّ، ولد (سـنة ٤٥٠هـ) بمدينة "طوس" بخراسان، وقيل: (سنة ٤٥١هـ)، وتوفي (سنة ٥٠٥هـ)، ومشهده بـ"طوس" يزار بـ"مقبرة الطابران"، من أشـهر مصـنفاته: إحياء علوم الدين، الاقتصـاد في الاعتقاد، فضـائح الباطنية، مقاصـد الفلاسـفة، تهافت الفلاسـفة... (ينظر في ترجمته: سـير أعلام النبلاء، الذهبي، (٣٤٣/١٩)، مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، طبقات الشافعية، التاج السبكي، (١٩١/٦ وما بعدها)، ت/ محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب، ب ط).

(٣) إحياء علوم الدين، (٣٠/٣).

(٤) لم المعاملة ينقسـم إلى: علم ظاهر: وهو العلم بأعمال الجوارح، وعلم باطن: وهو العلم بأعمال القلوب، سـواء ما يحمد منها كالصبر والشكر، أو ما يذم منها كالحقد والحسـد، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة. (ينظر: إحياء علوم الدين (٤/١)، (٢٠/١-٢١).

(٤) قال الغزالي: "فابتدأت بتحصيل علمهم ـ الصوفية ـ من مطالعة كتبهم، مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسـبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشـبلي...". (ينظر: المنقذ من الضـلال، الغزالي، (ص١٧٠-١٧١، د/ عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، بدون ت).

النّاظر في كتابه الماتع **(إحياء علوم الدّين)** يجد ذلك واضحًا غاية الوضوح.

كما اطّلعتُ له على كتبٍ أخرى، وجدتُ فيها مادة علميّة متميّزة في هذا المجال، ككتاب **(روضة الطّالبين وعمدة السّالكين)**، وكتاب **(منهاج العابدين إلى جنّة ربّ العالمين)**، وقد لاحظتُ أنّ مصطلح الخاطر في كتابات الإمام **الغزاليّ** ذات دلالات صوفيّة، ويقصد به: كلّ ما يحصل في قلب العبد من أمور، تبعثه على الفعل أو الترك.

لذلك عزمتُ على إظهار هذا الجانب عنده وتسليط الضّوءِ عليه من هذه الجهة؛ لما له من إضافات متميّزة في هذا العلم، ولما فيه كذلك من تجلية لأثرِه في معالجة أعمال القلب إلى أن يظهر الفعل على الجوارح، وهي أمورٌ - كما ذكرتُ - لا ينتبه لها إلا المتخصّصون الغالب عليهم ذكر الله ﷻ.

وممّا دعاني إلى كتابة هذا البحث أيضًا أنّ ما كُتب عن **الخواطر** يعدّ متفرّقات شتّى، لا يجمعها كتاب؛ فأردتُ أن أصيغ ما تيسّر لي في هذا الموضوع في بحث مستقل، يجمع المتفرّق ويلم المشتّت في مكان واحد؛ حتّى يتسنّى للقارئ أن يستفيد منه بأيسر طريق.

فكانت هذه كلماتٌ تكشف النّقاب عن هذا الجانبِ عند الإمامِ **الغزاليّ**، وقد عنونتُ لها ب- **"علم الخواطرِ كما يصوّره الإمامُ الغزاليّ (ت ٥٠٥هـ)"**.

وقد اقتضتْ طبيعة البحث أن أستخدم المنهج التحليليّ الاستنباطي في سبر أغوارِه ومعرفة مقدماته ونتائجه؛ عسى أن يخرج بأهدافه المنشودة منه.

خطّة البحث:

وقد رأيتُ أن يقتصر البحث بعد المقدّمة على تمهيد، وخمسة مطالب، وخاتمة، وفهارس:

أمّا التمهيد: ففيه بيان اهتمام الصوفيّة بالخواطرِ، وبعض مأثوراتِهم في ذلك.

وأمّا المطلبُ الأوّل: فعنوانه: تعريفُ الخواطرِ، وبيان محلّها.

وأمّا المطلب الثّاني: فعنوانه: أقسام الخواطر عند الإمام الغزاليّ.

وأمّا المطلب الثّالث: فعنوانه: كيفيّة التّمييز بين الخواطر عند الإمام الغزاليّ.

وأمّا المطلب الرّابع: فعنوانه: واجب العبد تجاه خواطره عند الإمام الغزاليّ.

وأمّا المطلب الخامس: فبعنوان: بيان الغزاليّ لما يُؤاخذ به العبد من الخواطر وما لا يُؤاخذ.

وأمّا الخاتمة فقد ذكرتُ فيها أهمّ النتائج التي أسفرتْ عنها هذه الكلمات.

ثمّ ذيلّتُ البحث بفهرس للمراجع، وآخر للموضوعات.

وبعد: فإن كنتُ قد أصبتُ فذلك فضلٌ من الله ﷻ، وإن كانت الأخرى فحسبي أنّي بذلتُ قصارى جهدي في هذا الموضوع.

والله أسأل أن يوفّقني لما يحبّ ويرضى . . .

تمهيد

اهتمامُ الصوفيّة بالخواطرِ، وبعض مأثوراتِهم في ذلك

لما كانت مراعاة خواطر القلوب هي وظيفة السّالك أو المريد المتوجّه للإله المجيد، فقد انشغل أهل المراقبة من علماء التّصوف الإسلاميّ بعلم **الخواطر**، واهتمّوا به اهتمامًا كبيرًا، ووقفوا عنده طويلًا، ولم لا؟! وهو علمٌ ينفي الصّوارف عن القلوب، ويستطيع العبد من خلاله معرفة خطَرَاته، ويتمكّن من التّمييز بينها - والتّمييز في ذلك غامضٌ، وأكثرُ العباد به يهلكون - ، وبناء عليه لزم الاهتمام به لمَن له في ذلك أدنى قدم [١].

وقد بنى السادة الصوفيّة نظريتَهم في هذا العلم على حديث رواه سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: **"إنّ للشّيطان لمّة بابن آدم، وللملَك لمّة: فأمّا لمّة الشيطان فإيعادٌ بالشرّ، وتكذيبٌ بالحقّ، وأمّا لمّة الملَك فإيعادٌ بالخير، وتصديقٌ بالحق فمَن وجد ذلك؛ فليعلم أنّه من الله، فيحمد الله، ومَن وجد الأخرى** [٢]**؛ فليتعوّذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ثمّ قرأ:** ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ البقرة:٢٦٨ [٣].

وقد علّق الإمام **الحسن البصريّ** [٤] على هذا الحديث، فقال: **"إنّما هما همّان يجولان في القلب: هَم من الله ﷻ، وهَم من العدو، فرحم الله عبدًا وقف عند همّه، فما كان من الله ﷻ أمضاه، وما كان من عدوّه جاهده"** [٥].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٢٩/٣)، قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق، (ص ٢٥٤)، القاعدة رقم (١٩١)، ت/ محمود بيروتي، ط/ ١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

(٢) أي: إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق فليعلم أنّها لمة الشيطان، فليتعوذ بالله منه.

(٣) رواه الترمذي في سننه عن ابن مسعود، باب: ومن سورة البقرة، (٢١٩/٥)، رقم (٢٩٨٨)، وقال: حسن غريب، ت/ إبراهيم عطوة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي–مصر، ط/ ٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

(٤) الحسن بن يسار البصري، تابعي، إمام أهل البصرة، أحد العلماء الفقهاء النساك، ولد بالمدينة، وسكن البصرة (ت ١١٠هـ). (الأعلام، (٢٢٦/٢).

(٥) إحياء علوم الدين (٢٧/٣)، وينظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب، أبو طالب المكي، (٢٠٠/١)، ت. د/ عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

كان هذا الحديث - الأكثر دورانًا على ألسنة السّادة الصوفيّة في هذا الباب - هو الأصل الباعث على القول بفكرة **الخواطر** التي تحوم على القلوب عند الصـــوفية وغيرهم، وهو المنطلق الذي انطلق منه القوم إلى تصنيفها إلى أقسام بحسب مصدرها المجازي، رغم أنّهم يجمعون على أنّ الخواطر كلّها من الله ﷻ في الحقيقة.

وهو أيضًا الدّليل على أنّ **الخواطر** فكرةٌ إسلامية خالصةٌ لم تدخل إلى الفكر الصوفيّ من تأثيرات خارجيّة، ولم تكن بعيدة عن روح الإســلام؛ إذ هي عندهم كلامٌ على ما يقع فعلًا للمريدين يصفونه لأشياخهم [(١)].

إذا تقرّر هذا؛ فإنّه قد اعتنى علماء التّصـوف **بالخواطر**، وبلغتْ عنايتهم بها أن أفردوا فصـــولاً وأبواباً مســـتقلّة من كتبهم لتحليلها ودراســـتها، وإذا نظرنا فيها فســـنجدها تغوص بالحديث عنها وعن أهميّتها؛ إذ هي الأساس الذي ترتكز عليه جميع مراحل الفعل الإنسانيّ، ومِن بين هؤلاء العلماء:

---

(١) ينظر: الخواطر، أ. د/ مها سمير محمد، بحث منشور بموسوعة التصوف الإسلامي، (ص٣٥٥، ٣٦٠)، إشراف أ.د/محمد مختار جمعة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-مصر، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.

ومما يؤيد ذلك، ما ذهب إليه المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (١٣٨٢هـــ=١٩٦٢م): من أنّ مصطلح الخاطر وما يتصل به من مصطلحات، كميل الطبع والاعتقاد والقصد، إنّما هي مصطلحات من اختراع فلاسفة الإسلام، ويقال: إن أول من نبه على الخاطر هو سهل بن عبد الله التستري. (ينظر: محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، لويس ماسينيون، (ص ٩٧، ٩٨)، ت. د/ زينب الخضيري، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، بدون ت).

(و)إن كان البغدادي قد ذهب إلى أن المعتزلة قد أخذوا القول بالخواطر عن البراهمة، وأنهم قد فارقوهم في إجازة بعث الرسل... (ينظر: أصول الدين للبغدادي، (ص ٤٤)، ت/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م). وقول البغدادي لا يعيب المعتزلة طالما أن هذه الفكرة لا تصطدم مع الأصول المقررة من الكتاب والسنة، خاصة إذا علمنا أن قولهم بالخواطر يتفق مع مذهبهم العام في الأخلاق، فإن الأساس الخلقي لديهم هو الإحساس الذاتي النابع من داخل الإنسان... (ينظر: الخواطر، أ.د/ أحمد عرفات القاضي، (ص ٥٥٣)، بحث منشور بموسوعة العقيدة الإسلامية، إشراف أ.د/محمد مختار جمعة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-مصر، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م).

١- **الحارث المحاسبيّ** [١] الذي كان له فضل السّبق والريادة في هذا المضمار، حيث خصّص بابًا لدراسة **الخواطر**، وطريق التّثبت منها، وقد جاء بعنوان: (باب رعاية [٢] حقوق الله ﷻ عند الخَطَرَات في اعتقاد القلوب) [٣]، وذلك في كتابه "الرّعاية لحقوق الله"، الذي بيّن فيه الطّريق لمَن أراد سلوك سبيل معرفة حقيقة نفسه وتزكيتها.

٢- **أبو طالب المكيّ** [٤] حيث تتّبع هذا العلم وحلّله، وأفرد له كتابًا تحت عنوان: (ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب...)، من خلال كتابه: "قوت القلوب" [٥]، الذي يعدّ المصدر الرئيسيّ لكتاب الإحياء، فمَن يطالع هذين الكتابين يجد بينهما تشابهًا كبيرًا في الأسلوب والعرض والشواهد.

٣- **الإمام أبو حامد الغزاليّ:**

حيث أوْلى هذا العلم عناية فائقة، فخصص جزءًا من كتاب (شرح عجائب القلب) للحديث عن خواطر القلب ووساوسه [٦]، وقرّر فيه أنّه لا ينبغي لأيّ أحد أن يستحقِر شيئًا من خطراتِه ولحظاتِه، بل إنّه قد أوجب على العبدِ أن يقفَ عند خواطرِه؛ إذ إنّها تعتبر المحرّكات للإرادات والأعمال، وجعل ذلك فرضَ عين عليه؛ إذ من خلاله يتوصّل الإنسان إلى معرفة الأحكام المتعلّقة بقلبه، وكذلك يقف على خُدَع نفسِه وآفاتها وخفيّات دسائسِها،

---

(١) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، من أهل البصرة، مات ببغداد سنة (٢٤٣هـ)، من كتبه: الرعاية لحقوق الله، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح وغيرهما. (ينظر: طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، (ص٢٢)، ت.د/ أحمد الشرباصي، ط/٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، الأعلام (١٥٣/٢).

(٢) الرعاية: هي صون بالعناية، وفي الدعاء: رعاك الله أي: اعتنى بصونك عما فيه شينك. (لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، القاشاني، (ص ٤٠٤)، ت. د/ أحمد السايح، وآخرين، مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة، ط/ ١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).

(٣) ينظر: الرعاية لحقوق الله، المحاسبي، (ص ٩٢ وما بعدها)، ت/ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/٤، بدون ت.

(٤) أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي، المكي المنشأ، الإمام الزاهد العارف، توفي ببغداد سنة (٣٨٦هـ). (ينظر: الأعلام، (٢٧٤/٦).

(٥) ينظر: قوت القلوب، (٢٢٠/١ وما بعدها).

(٦) ينظر: إحياء علوم الدين (٢٦/٣ وما بعدها)، وكتاب (شرح عجائب القلب) هو الكتاب الأول من ربع المهلكات.

وحِيل الشّيطان ومكائدِه ومخادعاتِه [١].

لذلك كلّه اســتحقّ هذا العلم أن يكون - على حدّ تعبير الإمام **الغزاليّ** - **"من العلوم اللّطيفة والأسرار الشّريفة"** [٢].

٤- **الإمـام القشـيريّ** [٣]**:** لخّص القشـيريُّ موقفَ المتقـدمين من **الخواطر**، من حيث تعريفها، وأقسـامها، وطريق التّحقق منها في كتابه "الرسـالة القشـيريّة"، الذي اعتمد عليه **الغزالي**ّ عند تأليفه للإحياء، كما أشـار إلى ذلك المرتضـى الزبيديّ [٤] بقوله عن هذا الكتاب والذي قبله: "عليهما مدار كلام الشّيخ غالبًا" [٥].

٥- **الشّـيخ محيي الدين ابن عربي** [٦]: ذهب في الخاطر أيضًـا مذهبَ المتقدمين من حيث

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣٠/٣)، (٣٧١/٤)، منهاج العابدين (ص١١٧).

(٢) روضة الطالبين وعمدة السالكين، الغزالي، (ص١٢٠)، دار النهضة الحديثة-بيروت، بدون ت.

(٣) عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشـيري، كان ذكيًا، فصـيحًا، جريئًا، (ت٥١٤هـــ)، من كتبه: الرسالة القشيرية. (ينظر: الأعلام (٣٤٦/٣).

(٤) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسـيني الزبيدي، الواسـطي الأصـل، توفي بالطاعون في مصر(١٢٠٥هـ)، من كتبه: إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين. (ينظر: الأعلام (٧٠/٧).

(٥) ينظر: إتحاف السـادة المتقين (٤/١). والحق أن اسـتفادة الغزالي من كتب السـابقين عليه أمر لا يعيبه؛ إذ العلماء قد درجوا على الاسـتفادة بجهود من سـبقهم، خاصـة إذا عرفنا أنه قد اعترف بمطالعة كتب بعض مشـايخه، مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب المحاسـبي، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الغزالي كانت له شخصيته المستقلة الحاضرة في معالجة مسائل هذا العلم، وفكره الإبداعي غير المسبوق، مما أهله أن يفوق مشايخه ومصنفاتهم، قال: "لقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتبًا، ولكن يتميز هذا الكتاب ـ يعني الإحياء ـ عنها بخمسـة أمور: الأول: حل ما عقدوه وكشـف ما أجملوه، الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه، الثالث: إيجاز ما طولوه وضـبط ما قرروه، الرابع: حذف ما كرروه و إثبات ما حرروه، الخامس: تحقيق أمور غامضـة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا". (ينظر: إحياء علوم الدين (٣/١).

(٦) محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي، محيي الدين ابن عربي، لُقب بـ"الشيخ الأكبر"، ولد عام (٥٦٠هـ)، وتوفي سنة (٦٣٨هـ)، من كتبه: الفتوحات المكية. (ينظر: (الأعلام (٢٨١/٦).

تعريفه، وأقسامه في كتابه "الفتوحات المكيّة"[١].

فكان لكلّ هؤلاء وغيرهم دورٌ بارزٌ في تحليل هذا العلم وتحديد معالمه وسبرِ أغواره، وبالتّالي كان له صدى وتأثيرٌ كبيرٌ في حياة المجتمع الصوفيّ.

وهاك بعض النّصوص التي أثرت عنهم في ذلك:

- فنجد نصًّا **للحارث المحاسبيّ** يشير فيه إلى أنَّ إصلاح العبد لحركات وخطرَات قلبه أشرف من إصلاح حركات جوارحِه، **فيقول: "العملُ بحركاتِ القلوبِ في مطالعاتِ الغيوبِ أشرفُ من العملِ بحركاتِ الجوارحِ"** [٢]؛ إذ القلب هو الأصل الجامع لكل الجوارح، فإذا كان هناك عضوٌ فاسدٌ فإنّ سبب ذلك خللٌ في القلب، فينبغي إصلاحه، فبصلاح القلب تصلح الجوارح؛ لذلك قال ﷺ: **"ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب"**[٣]، ففي هذا الحديث تنبيهٌ على تعظيم قدر القلب، والحثّ على صلاحه[٤].
- ونجد **أبا العبّاس الطوسيّ** [٥] يدعو إلى القيام على القلب بحفظ الخطَرات، مبينًا أنّ مَن راقب الله ﷻ في خَطرَات قلبه بعرضها على أحكام الكتاب الكريم والسّنة النبوية الشريفة، عصمَه الله في حركات جوارحِه بمنعه عن الزّلل والخطأ فيها، فيقول: **"مَن**

(١) ينظر: الفتوحات المكية، الشيخ محيي الدين ابن عربي، (٢٨٩/٤)، ت/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

(٢) طبقات الصوفية، (ص٢٢).

(٣) صحيح البخاري، ك/ الإيمان، ب/ فضل من استبرأ لدينه، (١/ ٢٠)، رقم (٥٢)، ت/ محمد زهير، دار طوق النجاة، ط/١، ١٤٢٢هـ، وصحيح مسلم، ك/البيوع، ب/أخذ الحلال وترك الشبهات، (١٢١٩/٣)، رقم (١٥٩٩)، ت الشيخ/ محمد فؤاد، دار إحياء التراث العربي-بيروت، بدون ت.

(٤) ينظر: منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، الإمام الغزالي، (ص ١٤٤)، ت.د / محمود مصطفى، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/ ١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

(٥) أبو العباس أحمد بن مسروق الطوسي، سكن بغداد ومات بها، سنة (٢٩٩هـ). (ينظر: طبقات الصوفية (ص٧٦).

راقبَ اللهَ ﷻ في خطراتِ قلبِه عصـمَه اللهُ في حركاتِ جوارحِه" [(١)]؛ وذلك لأنّ القلب مِلِكٌ مطاعٌ ورئيسٌ متّبعٌ، فالأعضـاء كلّها تبعٌ له، فإذا صـلح المتبوع صـلح التّبع، وإذا استقام المِلِك استقامت الرعيّة، وبفساده تفسد الرعيّة [(٢)].

- ومن هنا قال **أبو تراب النخشـبيّ** [(٣)]: **"ليس من العبادات شـيء أنفع من إصـلاحِ خواطرِ القلوبِ"** [(٤)]، وذلك لما لها من أثر كبير في تحديد مسـار الفعل الإنسـانيّ؛ فأعمال الجوارح ليست إلّا ثمرة وتعبيرًا عن خطَرات القلوب.
- ومن ثمّ نجد **الخرّاز** [(٥)] يؤكّد على **الخواطر**، ويحذّر من إغفالها، فيقول: **"راع قلبك وما يقع فيه، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتّبعه، وما كان من جنس الباطل والهوى فانفه بالسّرعة، ولا تماد على الخطْرة، فتصير شهوة، ثمّ تصير الشهوة همّة، ثمّ تصير الهمّة فعلًا"** [(٦)].
- وهذا **أبو العبّاس السياريّ** [(٧)] يبين حقيقة المعرفة فيذكر أنها ألّا يخطر في القلب خاطر ينطوي على أي موجود سوى الله ﷻ، **فيقول: "حقيقة المعرفة ألّا يخطر بالقلب ما**

---

(١) الطبقات الصوفية (ص٧٧)، الرسالة القشيرية، لـ عبد الكريم القشيري، (٣٢٣)، ت. د/ عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، وينظر: حاشية العلامة مصطفى العروسي، المسماة: نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الأنصاري، (٢٦٢/١)، ت/ عبد الوارث محمد، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/ ٢، ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر: منهاج العابدين (ص ١٤٤)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، (١٢٨/١)، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣) أبو تراب عسكر بن محمد بن حسين النخشبي، توفي سنة (٢٤٥هـ). (ينظر: طبقات الصوفية ص٤٦).

(٤) المرجع السابق (ص٤٦).

(٥) أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز البغدادي، توفي سنة (٢٧٩هـ)، من كتبه: كتاب الصدق. (ينظر: طبقات الصوفية (ص٧٣-٧٤)، الأعلام (١٩١/١).

(٦) كتاب الصدق، الخراز، (ص٣٩)، ت.د/ عبد الحليم محمود، دار المعارف-القاهرة، ط/ ٥، بدون ت.

(٧) أبو العباس القاسم السياري، الفقيه العالم، توفي سنة (٣٤٢هـ). (ينظر: طبقات الصوفية (ص١٥٢).

دونه"[١].

- لذلك قال **الحسين الحلّاج** [٢]: **"إذا تخلّص العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله ﷻ إليه بخاطره، وحرس سرّه أن يسنح فيه خاطر غير الحق"** [٣].

وبعد: فهذا غيضٌ من فيضٍ، وقليلٌ من كثيرٍ ممّا في كتب السّادة الصوفية، وما كان اهتمامهم بهذا العلم لهذه الدّرجة إلا لكون الخاطر أول الفعل وبدايته، فمعرفته من أهمّ شأن العبد؛ لأنّ حركات الجوارح - كما ذكرتُ - ثمرات الخواطر، والأفعال من الخواطر تنشأ، وبفسادها فساد الفعل [٤].

(١) المرجع السابق (ص١٥٣).

(٢) الحسين بن منصور الحلاج، نشأ بواسط والعراق، وقتل ببغداد سنة (٣٠٩هـ). (ينظر: المرجع السابق (ص١٠٢-١٠٣).

(٣) المرجع السابق (ص١٠٣).

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩)، عوارف المعارف، عبد القادر السهروردي، (٥١٧/٢)، ت.د/ أحمد عبد الرحيم، وتوفيق وهبة، مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة، ط/ ١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

المطلب الأول

تعريفُ الخواطِر، وبيانُ محلّها

أوّلًا: تعريف الخواطر:

١ - الخاطر في اللغة:

جاء في **مقاييس اللغة**: (خطر) الخاء والطاء والراء أصلان:

أحدهما: القدر والمكانة، كقولهم لنظير الشـيء: خطيره، ولفلان خطر، أي: منزلة ومكانة تناظره وتصلح لمثله.

والثاني: اضـطراب وحركة، وذلك كقولهم: خطر البعير بذنْبه خَطَرانًا، وخطر ببالي كذا خطرًا، وذلك أن يمرّ بقلبه بسرعة، لا لبث فيها ولا بطء... [١].

وجاء في **لسـان العرب**: الخاطر: ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر، وقد خطر بباله وعليه يخطِر، ويخطُر بالضـم خطورًا إذا ذكره بعد نسـيان، ووقع في باله ووهمه...، وخطر الشـيطان بين الإنسـان وقلبه: أوصـل وسـواسـه إلى قلبه، والخطر: مصـدر خطر الفحل بذنبه يَخطِر خطْرًا وخطرَانًا وخطيرًا: رفعه مرة بعد مرة، وضرب به يميناً وشمالاً... [٢].

ويربط **الزمخشـريّ** [٣] الخاطر بالقلب، فيرى أنّ الخاطر: "ما يتحرّك في القلب من رأي أو معنى"[٤].

وفي **القاموس المحيط**: الخاطر هو الهاجس [٥].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، (١٩٩/٢)، مادة (خطر)، ت/ عبد السـلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (٢٤٩/٤ وما بعدها) مادة (خطر)، دارصادر–بيروت، ط/٣، ١٤١٤هـ.

(٣) محمود بن عمر بن محمد، اللغوي المفسـر، ولد في زمخشـر (٤٦٧هـــ)، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية فتوفي فيها (٥٣٨هـ)، من أشهر كتبه: تفسير الكشاف. (ينظر: الأعلام (١٧٨/٧).

(٤) أساس البلاغة، الزمخشري، (٢٥٦/١)، مادة (خطر) ت/محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٥) ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، (ص٣٨٦)، مادة (خطر)، ت/ محمد نعيم العرقسُـوسـي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/٨، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

وبناء على ما سبق فإنّ لفظة (الخاطر) في أصلها اللغويّ تدور على عدة معان:

أحدها: القدر والمكانة.

الثاني: الاضطراب والحركة.

الثالث: ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر أو معنى.

الرابع: الهاجس أو الوسوسة.

٢ - **<u>الخاطر في الكتاب الكريم والسنّة النبويّة:</u>**

لم يرد لفظ (الخاطر) في القرآن الكريم، ولكن ورد فيه عدّة ألفاظ دالّة على بعض معانيه في أكثر من موضع، منها:

- **الوسوسة**: وهي الصوت الخفيّ، وقد نُسبت الوسوسة إلى الشّيطان، وهو يوسوس لآدم وحواء - عليهما السلام - في قوله ﷻ: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ الأعراف: ٢٠.

ونُسبت كذلك إلى النّفس في قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ ق: ١٦

- **النّزغ**: كما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يفزع إليه بالاستعاذة به من خطَرَات الشيطان ووساوسه، فقال ﷻ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ الأعراف: ٢٠٠

- **التّزيين**: أي: تزيين الباطل، قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ الأنفال: ٤٨

- **الطّائف**، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١

- **التّسويل والتّرغيب**: قال ﷻ فيما يصف قول نبيّه يعقوب - عليه السلام - إذ يقول لبنيه: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ يوسف: ١٨، وقال ﷻ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ محمد: ٢٥

- **الهم**: وهو حديث النفس بالشئ، وقد يفعل أو لا يفعل، **ومنه قوله تعالى**: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ يوسف: ٢٤

أمّا في السنة النبويّة المطهّرة فقد وردتْ الكلمة لتشير إلى معنى من المعاني اللغوية السّابقة:

- **فوردت بمعني: القدروالعظمة والمكانة**: ومنه ما رُوي عن مالك بن ربيعة[1]، أنّه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «**اللهم اغفر للمحلقين، اللهم اغفر للمحلقين» قال: يقول رجل من القوم: والمقصرين؟ فقال رسول الله ﷺ في الثالثة، أو في الرابعة: «والمقصرين»، ثم قال: و أنا يومئذ محلوق الرأس، فما يسرني بحلق رأسي حمر النعم أو خطرًا عظيمًا**" [2].

- **وجاءت بمعنى: الاضطراب والحركة**: فقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله ﷻ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ الأحزاب: ٤ ما عنى بذلك؟ **فقال: "قام نبيّ الله ﷺ يومًا يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلّون معه: ألا ترى أنّ له قلبين، قلبًا معكم وقلبًا معهم، فأنزل الله ﷻ:** ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾"[3].

- **وأطلقت على ما يرد على قلب العبد من أمرٍ أو رأي أو معنى**: ومنه ما رُوي أنّ رسول الله ﷺ قال: "**قال الله ﷻ: أعددتُ لعبادي الصّالحين ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم:** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ السجدة:١٧"[4].

ومنه ما روي عنه ﷺ أيضًا: "**إذا نُودي للصّلاة أدبر الشيطان وله ضُرَاط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النداء أقبل، حتى إذا ثوّب للصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، واذكر كذا لما لم يكن يذكر**

(١) مالك بن ربيعة، أبو أسيد الساعدي، من كبراء الأنصار، شهد بدرا وغيرها، مات سنة ٤٠ هـ (ينظر: سير أعلام النبلاء (٥٣٨/٢).

(٢) مسند الإمام أحمد، (١٤٠/٢٩)، رقم (١٧٥٩٨)، ت/ شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط/ ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٣) سنن الترمذي، باب: ومن سورة الأحزاب، (٣٤٨/٥) رقم (٣١٩٩)، وقال: «هذا حديث حسن».

(٤) صحيح البخاري، ك/ تفسير القرآن، ب/قوله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: ١٧]، (١١٥/٦)، رقم (٤٧٧٩).

من قبل، حتى يظلّ الرجل ما يدري كم صلّى" [١].

هذا، وقد ورد في السـنّة النبويّة ما يدلّ على معنى الخاطر، **ولعلّ أهم ما ورد لفظة (اللّمة)**، وتعني: النّزول والقرب والإصابة، والمراد بها: ما يقع في قلب العبد بواسطة الملَك أو الشّيطان[٢].

فقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنّ للملَك لـمة، كما أنّ للشيطان لـمة، حيث قال ﷺ: **"إنّ للشّيطان لمة بابن آدم، وللملَك لمّة: فأمّا لـمة الشيطان فإيعادٌ بالشر، وتكذيبٌ بالحق، وأمّا لـمة الملَك فإيعادٌ بالخير، وتصديقٌ بالحق فمَن وجد ذلك؛ فليعلم أنّه من الله، فيحمد الله، ومَن وجد الأخرى؛ فليتعوّذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ثمّ قرأ:** ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ البقرة:٢٦٨[٣].

وعليه فإنّ اللمّة هى الفكرة أو الخطرة التى تنقدح في القلب بواسطة الملَك أو الشيطان، فأمّا لمة الشّيطان فتسمّى: وسوسة، وأمّا لمة الملَك فتسمّى: إلهاماً.

٣- الخاطر في الاصطلاح الصوفيّ:

أمّا تعريف الخاطر عند الصوفيّة فقد اصطلحوا على وضع لفظة الخاطر لتدلّ على كلّ ما يرد على القلب من أمور ومعان، وقد عبّروا عن هذا بعبارات كثيرة وتعريفات متنوّعة، بعضها باعتبار حقيقته وماهيته، وبعضها باعتبار وظيفته وثمرته:

فالأوّل (أي: باعتبار حقيقته): كتعريف **القشيري**ّ له بأنّه "خطابٌ يرد على الضّمائر، فقد يكون بإلقاء ملَك، ويكون بإلقاء شيطان، ويكون أحاديث النّفس، ويكون من قِبل الحقّ ﷻ، فإذا كان من الملَك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبل النفس قيل له: الهواجس، وإذا كان من قِبل الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من قِبل الله ﷻ وإلقائه في القلب فهو خاطر حق "[٤].

---

(١) صحيح البخاري، ك/الآذان، ب/فضل التأذين، (١/١٢٥)، رقم (٦٠٨).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٥/١٩٧) مادة (لمّ)، لسان العرب (١٢/٥٤٨) مادة (لمم)، سراج الطالبين شرح الشيخ إحسان محمد دحلان، على منهاج العابدين للإمام الغزالي، (١/ ٢٩٤)، دار الفكر، بدون ت.

(٣) سبق تخريجه (صـ٧).

(٤) الرسالة القشيرية، (١٦٩).

وكتعريف **الكاشـــاني** [١] له بأنه "ما يرد على القلب من الخطاب، ربانيًّا كان، أو ملَكيًّا، أو نفسيًّا، أو شيطانيًّا، من غير أن يكون للعبد تعمّد فيه"[٢].

والثاني (أي: باعتبار ثمرته): كتعريف **الحارث المحاســبيّ** له بأنّه: "دواعي القلوب إلى كلّ خير وشر"[٣].

٤- الخاطر عند الإمام الغزاليّ:

عرّف الإمام **الغزاليّ** الخاطر بتعريفين:

التعريف الأول: حاول فيه تحديد حقيقته وماهيته، فعرّفه بأنّه: **"ما يحصل في القلب من الأفكار والأذكار**[٤]**،**

أي: يحصل فيه إدراكاته علومًا، إمّا على سبيل التجدّد، وإمّا على سبيل التذكر، فإنّها تسمّى خواطر من حيث إنّها تخطر في القلب بعد أن كان غافلًا عنها" [٥].

فالحاصل من الخير إنّما هو بسبب الآثار الحاصلة في القلب، والحاصل من الشر إنّما هو بسبب الآثار الحاصلة فيه أيضًا، والسبب الباعث على ذلك إنّما هو **الخواطر**.

التعريف الثّاني: يعدّ من التّعريفات الجامعة؛ إذ جمع فيه الإمام **الغزالي** بين الاعتبارين (حقيقته - ووظيفته) فذكر أنّ **الخواطر** هي:

"آثار تحدث في قلب العبد، تبعثه على الفعل أو التّرك، وتدعوه إليها" [٦].

أي: تحمله تلك الآثار على الأفعال أو التروك.

---

(١) عبد الرزاق بن أحمد ابن أبي الغنائم محمد الكاشاني أو القاشاني، الصوفي المفسر، (ت٧٣٠هـ). (ينظر: الأعلام (٣/٣٥٠).

(٢) معجم اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق الكاشاني، (ص١٧٧)، ت.د/ عبد العال شاهين، دار المنار- القاهرة، ط/ ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٣) الرعاية لحقوق الله (ص٩٢).

(٤) ويدلّ عليه قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ آل عمران: ١٩١

(٥) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/٢٦).

(٦) ينظر: روضة الطالبين (ص١١٧)، ومنهاج العابدين، (ص١١٢).

وبعد: فإننا نستطيع أن نستخلص مما سبق ما يلي:

١ - أنّ الخواطر هي أمور تحصل في قلب العبد، تقدح فيه نورًا وهدى أو ظلمة وضلالًا.

٢ - أنّ هذه الأمور إمّا أن تحثه على فعل أو ترك، على خير أو شر، على فكرة أو ضدها.

٣ - أنّ هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الخاطر منه المحمود ومنه المذموم، وذلك حسب نوع الأفعال التي يطالب بها؛ لكونه السبب الباعث عليها - كما سيأتي تفصيل ذلك.

هذا، ولا يفوتني أن أذكر أنّ هناك فرقًا واضحًا **بين مفهوم مصطلح الخاطر الأول عند الفلاسفة الأبيقوريين**[١] **والرواقيين**[٢]، الذين استعملوا لفظ الخاطر ليدلّ على المعرفة العفويّة التي تخطر بالذهن لأول وهلة، والتي تنبع من النفس تلقائيًّا عند أي إثارة خارجيّة، **وبين الخاطر عند الصوفيّة**؛ إذ هو مغاير تمامًا لذاك؛ فهو معرفة ملقاة من مؤثر خارجيّ عن النّفس، وليست نابعة تلقائيًّا منها[٣].

ثانيًا: محلّ الخواطر:

المحلّ الذي ترد عليه **الخواطر** هو القلب؛ إذ إنه بأصل الفطرة صالح لقبول الآثار الملائكية والآثار الشيطانية، ولكن يترجح أحدهما على الآخر باتباع الهوى والشهوات أو الإعراض عنهما ومخالفتهما.

هذا، وقد أعطى الإمام **الغزالي** للقلب أهميّة كبرى في المعرفة الصوفية بصفة عامّة، وفي **الخواطر** بصفة خاصّة، وقد شرح ذلك بعدّة أمثلة:

١-أنّ القلب كالبنيان الشّاهق ترد إليه الوفود من كلّ ناحية، ويستوعبها جميعًا مع ما بينها من اختلافات في الورود عليه.

---

(١) الأبيقوريون: هم أنصار المذهب الأبيقوري، الذي يُنسب إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور، وهو مذهب فلسفي مؤداه: أن اللذة هي وحدها الخير الأسمى، والألم هو وحده الشر الأقصى. (ينظر: المعجم الفلسفي، (ص ٢)، مجمع اللغة العربية-مصر، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

(٢) الرُّواقيون: مذهب إحدى المدارس الفلسفية اليونانية، سموا بذلك نسبة إلى الرواق الذي كان يعلم فيها مؤسسها زينون الكتيومي. (ينظر: المرجع السابق (ص ٩٣).

(٣) ينظر: المعجم الفلسفي، (ص٧٩)، موسوعة التصوف (ص٣٥٦).

٢-أنّه المأمول الذي يتهافت السّاعون في الحصول عليه من كل حدب وصوب.

٣-أنّه بمثابة انعكاس لما يرد عليه من الخواطر، كما أنّ المرآة انعكاس للصـــور الواقفة أمامها.

٤-أنّه وعاء حافظ يحيط بالخواطر من كل جانب وحيثما ترد، كما يحيط الحوض بالمياه الواردة إليه من الأنهار الجارية.

٥-أنّ **الخواطر** له كالسّهام، لا تزال تقع فيه، وتنصبّ إليه من كلّ جانب وطرف بشكل مستمر دون انقطاع، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده، فتتغير صفته:

- فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى، نزل به الملَك وصرفه عنه.
- وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره.
- وإن جذبه ملَك إلى خير جذبه آخر إلى غيره.

وهكذا، فتارة يكون القلب متنازعًا بين ملَكين، وتارة بين شـــيطانين، وتارة بين ملَك وشيطان، فلا يكون قط مهملًا.

٦- أن **الخواطر** كالمطر لا تزال تمطر على القلب ليلًا ونهارًا، لا تنقطع عنه، ولا يقدر العبد على منعها فتمتنع، أو التحفظ عنها بحال من الأحوال.

وعلى هذا وكما يرى الإمام **الغزالي** - فإنّ القلب هو مَنزِل الإلهام الذي يكون من قِبل الملَك، أو الوسوسة التي تكون من جانب الشيطان [١].

ونتيجة لذلك؛ فإنه قد يُطلق الخاطر على القلب أو النّفس على سبيل المجاز المرسل، من باب إطلاق الحال وإرادة المحل [٢].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٢٦/٣)، (٤٥/٣)، منهاج العابدين (ص١٤٥)، إتحاف السادة المتقين (٢٦٤/٧-٢٦٥).

(٢) ينظر: المعجم الوسيط، (٢٤٣/١)، مادة (خطر) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لـــ إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وغيرهما، دار الدعوة، بدون ت، وكشـــاف اصـــطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، (٧٥٢/١)، ت. د/ رفيق العجم، ت د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون–بيروت، ط/ ١، ١٩٩٦م.

المطلب الثّاني

أقسامُ الخواطرِ عند الإمام الغزاليّ

لقد كان فهمُ الصوفيّة للخواطر فهمًا عميقًا، فبعد أن عرّفوها، وعرفوا محلّها وأهميتها بدأوا يصنّفونها ويقسّمونها تقسيمًا يدلّ على فهم شامل لها، فيكادون يتفقون على أنّ **الخواطر** أربعة: خاطر ربّانيّ، وخاطر ملَكيّ، وخاطر نفسانيّ، وخاطر شيطانيّ [(١)].

وقد نظمها بعضهم في قوله:

إن الخواطر يابن ودي أربعة ... وهي التي أحوالها متنوعة.

منها الذي يعزى إلى الشيطان ... وكذا الذي هو خاطر نفساني.

وخاطر يعزى إلى فعل الملك ... وأجلّها يولى به من قد ملك.

ولقد تكامل عدها يا سالك ... فاعلمه واعمل يجل ليل حالك [(٢)].

فإذا نظرنا إلى **الحارث المحاسبي**- مثلًا - وهو ممن سبق الإمام **الغزاليّ** في هذا المجال - نجده يقسّم **الخواطر**، ويردها إلى ثلاثة أنواع:

الأول: تنبيه من الرّحمن، حيث يُروى عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **"مَن يرد الله به خيرًا يجعل له واعظًا من قلبه"** [(٣)]، وهو يشتمل على خطرتي الله ﷻ والملَك معًا، فمنه ما يخطر بباله بإحداث الخاطر، فينشئه في قلبه، ومنه ما يأمر الملَك أن يخطر ببال العبد؛ ليعظه بذلك وينبهه له.

الثاني: تسويل وأمر من النّفس، قال ﷻ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ يوسف: ٨٣

(١) ينظر: الفتوحات المكية (٤٢٥/١).

(٢) العرف العاطر في معرفة الخواطر وغيرها من الجواهر، تأليف: أبو المراحم عبد الرحمن العيدروس (١١٩٢هـ)، (ص ١٩٩)، ت الشيخ/أحمد المزيدي، بدون طبعة و ت.

(٣) لم أجده في كتب السنة بهذا اللفظ، ولكن أورده أبو نعيم الأصبهاني بلفظ قريب، وهو أنّ النبي ﷺ قال: "إذا أحبّ الله عبدًا جعل له واعظًا من نفسه، وزاجرًا من قلبه يأمره وينهاه". (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (٩٩/١٠)، دار السعادة-مصر، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م).

الثالث: تزيين ووسوسة من الشيطان، قال ﷻ: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾الأعراف: ٢٠[1].

وكذلك **الجنيد** [2] تحدّث عن الخطرات، وقسّمها إلى أربعة أقسام: خطرة من الله ﷻ، وخطرة من الملَك، وخطرة من النفس، وخطرة من الشيطان [3].

أما الإمام الغزالي فقد قسم الخاطر باعتبارين:

أحدهما: باعتبار مصدره.

والثاني: باعتبار كونه محمودًا أو مذمومًا.

أولًا: تقسيم الخاطر باعتبار مصدره:

لقد أجاد الإمام الغزالي حين استقصى كل ما يتعلق بالخواطر في النفوس، وقسّمها تقسيما دقيقا باعتبار مصدرها، وفسّرها بما يقرب من تفسير من سبقه، فجعلها أربعة أقسام:

الأوّل: الخاطر الإلهيّ: وهو ما يحدثه الله ﷻ في قلب العبد ابتداء بلا واسطة، فيقال له: الخاطر فقط، وهو:

١- قد يكون خيرًا؛ إكرامًا وإلزامًا للحجة.

٢- وقد يكون شرًّا؛ امتحانًا وتغليظًا للمحنة.

الثانيّ: الخاطر الملَكيّ: وهو ما يحدثه الله ﷻ من جانب ملَك من ملائكته على قلب عبد من عباده، يأمره بالطاعات، وينهاه عن المخالفات، ويوحي إليه عمل الخيرات، ويذكّره بأهل الصلاح والإيمان، ويقال له: الإلهام.

- ولا يكون إلّا بخير؛ إذ هو ناصحٌ مرشدٌ، لم يرسل إلّا لذلك.

الثالث: الخاطر النفسانيّ: وهو ما يحدثه الله ﷻ موافقًا لطبع الإنسان وهواه، ويسمّى هذا الخاطر بهوى النّفس.

---

(١) ينظر: الرعاية لحقوق الله (ص٩٢-٩٤).

(٢) أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، مولده ومنشؤه بالعراق، توفي سنة (٢٩٧ هـ). (ينظر: طبقات الصوفية (ص٤٩).

(٣) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون (٧٥٣/١).

- ولا يكون إلّا بشرٍ، وبما لا خير فيه؛ تمنعًا وتعسّفًا.
- وقد يكون بالخير، لكنه خير لا لذاته، بل يكون المقصود منه الشر.

الرّابع: الخاطر الشّيطانيّ: وهو ما يحدثه الله ﷻ عقيب دعوة الشيطان، فينسب إليه، ويسمّى هذا الخاطر بالوسواس.

- ولا يكون إلّا بشر؛ إغواء واستدلالًا.
- وربّما يكون بالخير وقصده في ذلك الشّر؛ مكرًا منه واستدراجًا؛ لأنه لا يقدر على دعاء العباد إلى الشر الصريح، فيصور الشر ويلقيه بصورة الخير، فيشبه عليهم بذلك، حتى يلحقهم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ الكهف: ١٠٣–١٠٤، وذلك:

- بأن يدعو الشيطانُ العبدَ إلى المفضول من الأعمال؛ ليمنعه عن الخير الفاضل.
- أو أن يدعوه إلى الخير ليجرّه إلى ذنبٍ عظيمٍ، لا يفي خيره بذلك الشّر من عجب أو رياء أو نحو ذلك من الصفات المذمومة [١].

وقد ضرب الإمام **الغزالي** مثالًا على ذلك، فذكر أنّ الشيطان يأتي للعالِم موسوسًا له بطريق الوعظ، فيقول له: أمَا تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل، هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النّار؟ أمَا لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب [٢] بنصحك ووعظك؟ وهو لا يزال يقرّر ذلك في نفسه ويستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ النّاس، ثمّ يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم، ويتصنّع بتحسين اللفظ، ويقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم، ولم يهتدوا إلى الحق، ولا يزال يقرر ذلك عنده، وهو في أثنائه يؤكّد فيه شوائب الرياء، وقبول الخلق، ولذة الجاه، والتعزز بكثرة الأتباع

(١) ينظر: روضة الطالبين (ص١١٧-١١٨)، منهاج العابدين (ص١١٢ وما بعدها)، سراج الطالبين (١/ ٢٩٤)، بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية، أبو سعيد محمد الخادمى (ت ١١٥٦هـ)، (١٣٦/٢ وما بعدها)، مطبعة الحلبي، ١٣٤٨هـ.

(٢) المعاطب: المهالك، مفردها: معطب. (ينظر: مختار الصحاح، الرازي، (ص٢١١) مادة (عطب)، ت/ يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط/ ٥، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

والعلم، والنّظر إلى الخلق بعين الاحتقار؛ فيستدرجه إلى الهلاك، فيتكلم وهو يظن أنّ قصده الخير، وإنّما قصده الجاه والقبول، فيهلك بسببه، وهو من الذين قال فيهم رسولُ الله ﷺ: **"إنّ الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خَلاق لهم"**(١)، وقوله: **"إنّ الله يؤيد هذا الدّين بالرجل الفاجر"**(٢)(٣).

ويظهر لنا أن تقسيم الإمام **الغزالي** للخواطر إلى أربعة أقسام زاد عما ذكره حديث اللمتين(٤) قسمين: الأول: الخاطر الإلهي، والثاني: الخاطر النفساني، إلا أنه لم يخرج عن كون هذه **الخواطر** إما أن تبعثه على خير أو على شر، ولا يمتنع أن تتعدد خواطر الخير، فتكون بعضها بواسطة المَلَك الملهم، وبعضها عن طريق الله ﷻ، وكذلك لا يمتنع أن تتعدد خواطر الشر، فتكون بعضها بواسطة الشيطان، وبعضها بواسطة النفس.

وفي الحقيقة فإنّ هذا التصنيف الرّباعيّ للخاطر هو الأشهر، والذي عليه أكثر السّادة الصوفيّة.

ثانيًا: تقسيم الخاطر باعتباركونه محمودًا أو مذمومًا:

إن الإمام **الغزاليّ** وإن كان قد سار مع أكثر الصوفية في تقسيم **الخواطر** إلى: (إلهي - ملكي - نفسي - شيطاني)، فإنه قد قسّمها باعتبار آخر، وهو كون الخاطر محمودًا أو مذمومًا إلى قسمين، هما:

---

(١) السنن الكبرى، النسائي، الاستعانة بالفجار في الحرب، (١٤٧/٨) رقم (٨٨٣٤)، ت/حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/ ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م).

(٢) صحيح البخاري، ك/ الجهاد والسير، ب/ إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، (٧٢/٤)، رقم (٣٠٦٢).

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين (٢٩/٣-٣٠). ومثال ذلك أيضا: "مَن واظب على علوم الحقيقة والزهد الخالص في الدنيا، فهذا قد يظن به أنه داعية رحمانية، لكن قد لا يكون الأمر كذلك، وذلك إذا كان مقصوده من ذلك العلم المباهاة على الأقران، وطلب الرئاسة في عالم الجسمانيات، ومَن واظب على ترك الالتفات إلى الأمور المعتبرة في العرف والعادة، فهذا قد يظن به أنه داعية شيطانية، لكن قد لا يكون كذلك، إذا كان مقصوده منه: فطم النفس عن الالتفات إلى هذه الدنيا وطيباتها". (المطالب العالية من العلم الإلهي، للفخر الرازي، (٣٣١/٧)، ت.د/ أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي-بيروت، ط/ ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

(٤) ينظر: (ص ٧).

١- **الخاطر المحمود:** وهو الذي يدعو إلى الخير، وإلى ما ينفع في الدار الآخرة، ويسمّى: (**إلهامًا**)، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبوله يسمى: (**توفيقًا**)، وسببه يسمى: (**المَلَك**)، وهو عبارة عن خلق خلقه الله ﷻ، وسخّره لإفاضة الخير، وإفادة العلم، وكشف الحق، والوعد بالخير، والأمر بالمعروف...

٢- **الخاطر المذموم:** وهو الذي يدعو إلى الشّر، وإلى ما يضرّ في العاقبة، ويسمّى: (**وسواسًا**)، والذي به يتهيأ لقبوله يسمّى: (**إغواء وخذلانًا**)، وسببه يسمّى: (**الشيطان**)، وهو عبارة عن خلقٍ شأنه الوعد بالشر، والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهمّ بالخير بالفقر ... ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ البقرة: ٢٦٨

ويتضح لنا من ذلك أنّ الإلهام في مقابلة الوسوسة، وأنّ التّوفيق في مقابلة الخذلان، وأنّ المَلَك في مقابلة الشّيطان [١].

وقد عبّر الإمام **الغزاليّ** عن ذلك بقوله: "إنّ الله ﷻ وكّل بقلب ابن آدم ملَكًا يدعوه إلى الخير، يقال له: (الملهِم)، ولدعوته: (إلهام)، وسلّط في مقابلته شيطانًا يدعو العبد إلى الشر، يقال له: (وسواس)، ولدعوته: (وسوسة)، فالملهِم لا يدعو إلّا إلى الخير، والوسواس لا يدعو إلّا إلى الشّر...، فهذان داعيان - أي: الملهم والشيطان - قائمان على قلب العبد، يدعوانه إلى مطلوبهما، وهو يسمع قلبه يحس بذلك" [٢].

هذا، ويُلاحَظ أنّ تّقسيم الغزاليّ للخاطر بهذا الاعتبار مأخوذ من القسمين المذكورين في حديث اللّمتين [٣] الذي ميز بينهما، ومقتبس أيضًا من قول رسول الله ﷺ: **"ما منكم من أحد إلّا وقد وكّل به قرينه من الجنّ وقرينه من الملائكة، قالوا: و إياك يا رسول الله؟ قال: «و إياي، إلا أنّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلّا بخير»** [٤].

---

(١) ينظر: المرجع السابق (٣/٢٧).

(٢) ينظر: منهاج العابدين (ص ١١١).

(٣) ينظر: (ص ٧).

(٤) صحيح مسلم، ك/صفة القيامة والجنة والنار، ب/تحريش الشيطان، (٤/٢١٦٧-٢١٦٨)، رقم (٢٨١٤).

وعلى كلّ، فلقد خلص الإمام **الغزالي** إلى أنّ هذه **الخواطر** كلّها على تنوّعها واختلافها فإنّها حادثة، وحدوث جميعها في قلب العبد بالحقيقة من الله ﷻ؛ إذ هو خالق كل شـيء، لا يخرج عن مشـيئته وقدرته وحكمته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر [(١)]، وذلك بناء على ما قرّره أهل السـنة من أنّ الله ﷻ خالق للخير والشـر، ولكن لا ينسـب إليه إلا الخير تأدبًا [(٢)]؛ "إذ كيف يخفى عليه ما في القلوب، ولا يكون في القلوب إلا ما يلقى فيه، أفيخفى عليه ما هو منه ؟!" [(٣)].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ الزمر: ٦٢، وقال: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٧٨

ويتفق التهانوي [(٤)] مع الإمام **الغزالي** في أن تقسـيم **الخواطر** على هذا النحو إنما هو تقسيم مجازي، حيث يقول في كشـافه: "المشـهور عند مشـايخ الصـوفية أنّ الخواطر أربعة كلها من الله ﷻ بالحقيقة، إلّا أنّ بعضـها يجوز أن يكون بغير واسـطة، وبعضـها بواسـطة، فما كان بغير واسـطة وهو خير فهو الخاطر الرّبّاني، ولا يضـاف إلى الله ﷻ إلّا الخير تأدبا، وما كان بواسـطة وهو خير فهو الخاطر الملكي، وإن كان شـرًّا فإن كان بإلحاح وتصـميم على شيء معيّن فيه حظّ النفس فهو الخاطر النفساني، وإلّا فهو الشيطاني"[(٥)].

هذا، وإذا كان الإمام **الغزاليّ** قد قسّـم **الخواطر** إلى خاطر (إلهيّ-وملكيّ-ونفسـانيّ-وشـيطاني)، أو إلى خاطر (محمود-ومذموم)، **فقد بقي لنا الآن أن نتعرف على كيفية التمييز بينها، وهل ثمة طريق معين إذا سلكه العبد يتمكن من خلاله أن يفرق بينها، وأن يحدد مصدرها؟**

هذا ما سيجيب عنه الإمام الغزالي في المطلب التالي:

---

(١) ينظر: روضة الطالبين (ص ١١٧)، منهاج العابدين (ص ١١٢)، قواعد العقائد، الغزاليّ، (ص٥٦-٥٧)، ت/ موسى محمد علي، عالم الكتب–لبنان، ط/ ٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٢) ينظر: تحفة المريد شـرح جوهرة التوحيد، الشـيخ الباجوري، (ص١٦٨)، ت.د/ علي جمعة، دار السـلام-القاهرة، ط/ ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، وشرح النووي على مسلم (٥٩/٦)، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط/ ٢، ١٣٩٢هـ.

(٣) اللمع، الطوسي، (ص٨٢).

(٤) محمد بن علي بن محمد حامد الحنفي التهانوي الهندي، توفي بعد (١٧٤٥م). (الإعلام (٢٩٥/٦).

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون (٧٥٣/١-٧٥٤)، وينظر: موسوعة التصوف الإسلامي (ص ٣٥٨).

المطلب الثالث

كيفيّة التّمييز بين الخواطر عند الإمام الغزاليّ

لقد لاحظ السّادة الصوفيّة أنّ الإنسان قد يضعُف يقينه بالأمور الأخروية أو بالمخبرِين بها، أو يقلّ علمه بصفات النفس وأخلاقها، أو يتّبع هواه بخرم قواعد التقوى، أو يحبّ دنياه جاهها ومالها، ولاحظوا كذلك أنّ هذه الأمور لا تمكّنه من معرفة خواطره، ومن إمكانيّة التّمييز بينها فيقع الاشتباه [(١)]؛ لذا عدّ الإمام **الغزالي** هذا العلم "**من أغمض أنواع علوم المعاملة**"[(٢)].

وانطلاقا من هذا فقد وضع علماء التصوف الإسلاميّ عدة معايير يتميّز بها كل خاطر عن غيره، وذلك في محاولة منهم لبيان كيفيّة التعرف على نوع الخاطر الذي نزل على القلب.

فهذا **أبو طالب المكيّ** مثلًا يتطرق إلى كيفيّة التّمييز بينها، ويبين كيف يمكن للإنسان أن يفرّق بين أنواعها ومصادرها، فيقول: "ما كان من لائح يلوح في قلب العبد من معصية، ثم ينقلب فلا يلبث، فهذا نزغ من قِبل **العدو**، وما كان في قلبه من هوى ثابت، أو حال دائم، فهو من قِبل **النفس الأمّارة بطبعها**، وما ورد عليه من همّه بخطيئة، ووجد فيها كراهتها، فالورود من قِبل **العدو**، والكراهة من قِبل **الإيمان**، وما وجده العبد من هوى أو معصية، ثمّ ورد عليه المنع من ذلك فالهوى من **النفس**، والمنع من **الملَك**، وما وجده من فكر في عاقبة الدنيا، أو تدبير الحال ونظرٍ إلى معهود، فهذا من قِبل **العقل**، وما وجده من خوف أو حياء...، فهذا عن **الإيمان**، وما شهد القلب من تعظيم أو هيبة...، فهذا من

---

(١) "ومن عصم عن هذه الأربعة ــ أي: ضعف اليقين وقلة العلم و اتباع الهوى وحب الدنيا ــ يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومن ابتلى بها لا يعلمها ولا يطلبها، و انكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض، وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس". (ينظر: عوارف المعارف، (٥١٨/٢).

(٢) إحياء علوم الدين، (٣٠/٣).

اليقين، وهو من مزيد الإيمان" [1].

أما إذا ما ولينا وجهنا تجاه الإمام الغزاليّ فإنّنا نجده يتحدث بنوع من التفصيل، فيعرض كيف يمكن للعبد أن يميّز بين **الخواطر** الظلمانيّة والنورانيّة، وكيف يحدد مصادرها، فيذكر ثلاثة أمور من خلالها يستطيع الإنسان أن يتعرف على خواطره، وأن يفرق بينها؛ لكي يتبع ما يكون من قِبل الله ﷻ أو من الملهِم، ويجتنب ما يكون من نزغ الشيطان وهوى النفس.

وبيانها على النحو التالي:

الأمر الأول: وهو للتفرقة بين خاطر الخير وخاطر الشر:

حدّد الإمام **الغزاليّ** ثلاثة موازين يستطيع العبد من خلالها أن يفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر، أي: يكون من الله ﷻ، أو من هوى النفس، أو من الشيطان، وهي كما يلي:

الأول: ميزان الشّرع: وذلك بأن يعرض العبد خاطره على الشرع، فكل ما فيه قربة إلى الله ﷻ فعلًا أو تركًا فهو خير، وكل ما فيه مخالفة شرع الله ﷻ فهو شر من الشيطان ووسوسته.

الثاني: ميزان الاقتداء بالصالحين: فإن لم يتبين للعبد في الخاطر خير أو شر، فليعرضه على الاقتداء بالعلماء الصالحين العاملين، فإن كان في فعله اقتداء بهم فهو خير، وإلّا - أي: وإن كان فيه اقتداء بالطالحين الفاسقين - فهو شر.

الثّالث: ميزان النفس والهوى: فإن لم يستطع أن يميز بين خواطره بهذين الضابطين - الشرع والاقتداء بالصالحين - فليعرض ذلك على نفسه وهواه، الذي شأنه الميل إلى الشهوات والملذات والحظ العاجل:

- فإن كان مقتضى الخاطر ممّا تكرهه النّفس وتنفر منه نفرة طبع - أي: هوى وشهوة - لا نفرة خشية من الله ﷻ ورهبة منه فهو خير؛ لأنّ الغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون، فإذا خلّيت وطبعها تميل إلى الشّرور، وتنفر عن الخير؛ إذ المناهي محبوبة في القلوب.

(١) ينظر: قوت القلوب (ص٣٥٨).

- وإن كان ممّا تحبّه النفس وتميل إليه ميل طبع وجبلة لا ميل رجاء إلى الله ﷻ ورغبة فهو شر؛ لأنّها إذا خلت من العوارض والموانع مع طبعها لأمّارة بالسوء، لا تميل بأصلها إلى خير، بل تميل إلى الطبيعة البدنية، فتأمر باللذات والشهوات الحسيّة، فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ يوسف: ٥٣[1].

فبأحد هذه الموازين الثلاثة يتمكن العبد إذا نظر وأمعن النظر من التفرقة بين خاطر الخير وخاطر الشر.

الأمر الثاني: وهو للتّعرف على خاطر الشر فقط:

وضع الإمام **الغزاليّ** ثلاثة أوجه إذا أراد العبد أن يفرق بين خاطر الشر يكون من قِبل الشّيطان، أو من قِبل هوى النفس، أو من الله ﷻ ابتداء، وهي كما يلي:

الوجه الأوّل: أنّه إذا وجد العبد خاطر الشر مصممًا محكمًا ثابتًا على حالة واحدة فهو:

- إما أن يكون من الله ﷻ؛ ابتلاء منه.

- وإما أن يكون من هوى النفس الأمّارة بطبعها؛ فهى تكرّر وتلحّ، ولا تزول عن الإقدام إلى أن تصل إلى مرادها، وتحصّل مقصودها.

أمّا إن وجده مترددًا مضطربًا غير ثابت على حالة واحدة فهو من نزغ الشّيطان؛ لأنّه لا يصر على شيء، فإن لم يُجب العبد دعوته لشيء ينقله إلى آخر؛ إذ لا غرض له في المعصية الخاصة، بل مراده الإضلال كيفما كان.

وهكذا يتضح لنا الفرق بين الخاطر النفساني والشيطاني، فالخاطر النفساني ثابت لا يزول، فإذا طالبت النفس بشيء ألحت...، فلا تزال تعاود ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها، ويحصل مقصودها، اللهم إلا أن يدوم صدق المجاهدة وذكر الله ﷻ، بخلاف الخاطر الشيطاني، فإنه إذا دعاك إلى زلة فخالفته بترك ذلك، يوسوس بزلة أخرى؛ لأن جميع المخالفات له سواء، وإنما يريد أن يكون داعيًا أبدًا إلى زلة ما، ولا غرض له في

(١) ينظر: روضة الطالبين (١١٨)، منهاج العابدين (١١٣-١١٤)، التعريفات، الشريف الجرجاني، (ص٢٤٣)، ت/ جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط/١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

تخصيص واحد دون واحد، كما أنه يزول بذكر الله ﷻ، ويرجع مع الغفلة عن الله ﷻ[1].

الوجه الثاني: أنّه إن وجد الإنسـان خاطر الشـر قد وقع بعد ذنب أذنبه فهو من الله ﷻ؛ إهانة وعقوبة له من شـؤم ذلك الذّنب، قال الله ﷻ: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤ فيؤدي الذّنب إلى قسوة القلب أولها خاطر، ثم يؤدي هذا الخاطر إلى القسوة والرين.

أمّا إذا كان الخاطر مبتدأ، ولم يكن بعد ذنب فهو من قِبل الشّـيطان؛ فإنّه يبتدئ بدعوة الشر، ويطلب الإغواء والإضلال بكل حال، سواء كان الخاطر مبتدأ أو عقيب ذنب.

الوجه الثالث: أنّه إذا وجد المرء خاطر الشـر لا يضـعف ولا يزول ولا يقلّ من ذكر الله ﷻ فهو منبعث من هوى النّفس.

أمّا إن وجده يقلّ ويضـعف من ذكر الله ﷻ فهو من الشّـيطان؛ لأنّ عادته أن يخنس عند ذكر الله، كما قال أهل التفسير عند قوله ﷻ: ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾ الناس: ٤ إنّ الشّيطان جاثم - أي: قاعد - على أذن قلب ابن آدم، إذا ذكر الله خنس - أي: انقبض وتأخر - ، وإذا غفل وسوس[2].

الأمر الثالث: وهو للتعرف على خاطر الخير فقط:

إذا أراد العبد أن يتعرّف على خاطر الخير يكون من الله ﷻ، أو من الملَك، أو من الشـيطان فقد ذكر له الإمام **الغزاليّ** أربعة ضوابط:

- **الأوّل:** أنّه إن وجد الإنسان خاطر الخير قويًا ثابتًا على حالة واحدة فهو من الله ﷻ.

أما إن وجده مترددًا غير ثابت فهو من الملَك؛ إذ هو بمنزلة ناصح مرشد، يدخل مع العبد في كلّ جانب ووجه من الخير، ويعرض عليه كلّ نصح ورشد؛ رجاء إجابته ورغبته في الخير.

- **الثاني:** أنّه إن كان خاطر الخير قد وقع بعد اجتهاد وطاعة من العبد فهو الله ﷻ، قال

(١) ينظر: الرسالة القشيرية (١٧٠)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، (٢٨٣/١)، ت/ عمر الراوي، دار الكتب العلمية-بيروت.

(٢) ينظر: روضة الطالبين (١١٨-١١٩)، منهاج العابدين (ص١١٤-١١٥).

الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ محمد: ١٧

أما إن كان مبتدأ من غير طاعة أو اجتهاد فهو من الملَك في الغالب.

- **الثالث:** أنّه إذا كان خاطر الخير في أصول الاعتقاد والأعمال الباطنة كالتوكل والرضا فهو من الله ﷻ؛ إكرامًا منه.

أما إن كان في الفروع والأعمال الظاهرة فهو من الملَك في الأكثر؛ إذ لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد.

- **الرابع:** أنّ العبد إذا وجد في نفسه مع خاطر الخير نشاطًا وسرورًا ليس معهما خشية وخضوعًا، وعجلة ليس معها تأنٍ، وأمنًا ليس معه خوف، ومع عمى عن العاقبة لا مع بصيرة... فهو من وسوسة الشيطان، فيجب عليه أن يجتنبه.

وإن وجد نفسه ضد ذلك - أي: مع خشية لا مع نشاط، ومع تأن وتثبت لا مع عجلة، ومع خوف لا مع أمن - فهو من الله ﷻ أو من الملَك [(١)].

وبعد: فمن خلال هذه الموازين وتلك الضّوابط والأوجه التي امتاز فيها الإمام **الغزاليّ** على مَن سبقه يستطيع الإنسان أن يميز بين كلّ خاطر يرد على قلبه، وما يدعو إليه عن طريق ملاحظة جهة وحال ورودِه على القلب.

على أنّني قبل أن أترك هذه المطلب أسجّل هنا أنّه ممّا لاحظه الإمام **الغزاليّ** على هذا العلم أنّه "قد أهمله الخلق، واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس، وتسلّط عليهم الشّيطان، وتنسيهم عداوته، وطريق الاحتراز عنه" [(٢)]، وبالتّالي أصبحوا غير قادرين، بل غير مهتمين بخواطرهم، وكيفيّة التعرف عليها والتمييز بينها.

و انطلاقًا من هذا فإنّه يمكن القول بأنّه "إنّما يتطلّع إلى معرفة اللّمتين - لمة الملَك ولمة الشيطان - وتمييز الخواطر طالب مريد، يتشوّف إلى ذلك كتشوّف العطشان إلى الماء؛ لما يعلم من وقع ذلك وخطره وصلاحه وفساده...، وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين، ومن أخذ

(١) ينظر: روضة الطالبين (صـ ١١٩-١٢٠)، منهاج العابدين (صـ ١١٥-١١٦).

(٢) إحياء علوم الدين (٣٠/٣).

به في طريقهم، ومن أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التّشوف؛ لأنّ التشوّف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم، ومَن هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلّع إلى معرفة اللّمتين، ولا يهتم بتمييز الخواطر" [1].

هذا، وإذا كان العبد قد استطاع - بتوفيق من الله ﷻ - أن يميّز بين خواطره، وما يحصل في قلبه، فما الذي يجب عليه إزاءها؟ وما الأمور التي يجب أن يراعيها تجاهها؟ هذا ما سأتعرض له في المطلب التالي:

(١) ينظر: عوارف المعارف (٢/٥١٢).

المطلب الرابع

واجبُ العبدِ تجاه خواطره

بعد أن عرض الإمام **الغزالي** كيف يمكن للإنسان أن يفرق بين أنواع **الخواطر**، ويميز بين مصادرها، وطريق التعرف عليها أتبع ذلك بوضع عدة أمور تعين السالك أو المريد أو العبد بصفة عامة على تمحيص خواطره وضبطها، وبالتالي فإنه يجب عليه أن يراعيها إن أراد السلامة والنجاة، وذلك فما يلي:

الأمر الأول: سد أبواب الخواطر (النفسانية والشيطانية):

بادئ ذي بدء ذكر الإمام **الغزالي** أنه يجب على العبد أن يسد أبواب الخواطر النفسانية والشيطانية الظاهرة والباطنة؛ لكي ينجو من كثرة الوساوس والهواجس:

- أما أبوابها الظاهرة فمتمثلة في الحواس الخمس، وهي التي يرد على القلب منها ما يرد من الخواطر الرديئة.
- وأما أبوابها الباطنة فهي الشهوات وعلائق الدنيا؛ لأنّ الشيطان يدخل إلى النفس عن طريق طلب الملذات، واتباع الحظوظ الدنيوية.

ورأى الإمام الغزالي أن السبيل إلى سد هذه الأبواب إنما يكون عن طريق (دوام الذكر)، فلا يفتر عنه أبدًا؛ إذ القلب لا يخلو من الشيطان ووساوسه بإيراد **الخواطر** المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ﷻ، وأنّه يبقى له مداخل باطنة في التخيلات الجارية في القلب، كالشهوة والغضب ونحو ذلك، وبما أنّ الأمر كذلك فقد أوضح الإمام **الغزالي** أنّ ذلك لا يندفع إلا بشغل القلب بذكر الله ﷻ على الدوام بالقلب واللسان إن أراد العبدُ النجاة، وذلك بأن يعرف عظيمَ حق الله ﷻ، وعظيم ثوابه وعقابه، ووعده ووعيده، وأن يجدد إيمانه ويقينه؛ فإنّه إن اشتغل قلبه بذكر الله ﷻ خلا- لا محالة - عن غيره.

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١ أي: رجعوا إلى نور العلم، فينكشف لهم الإشكال، وينجلي لهم الإبهام،

فيفرقون بين لمّة الملَك ولمّة الشّيطان [١].

أمّا إذا غلب على القلب ذكر الدنيا وطلب الملذات ومقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالًا فوسوس؛ إذ الهوى مرعى الشيطان ومرتعه، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ الزخرف: ٣٦، وقال ﷺ: «**إنّ الشيطان واضعٌ خِطْمه في قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي الله التقم قلبه**» [٢].

لذلك قال سهل التستري [٣]: "مَن خلا قلبه من ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان"[٤]، ولكن إذا انصرف القلب إلى ذكر الله ﷻ ارتحل الشيطان وضاق مجاله، وأقبل الملَك وألهمَ، وذلك أمر لا يقدر عليه إلا المتّقون الذّاكرون [٥].

ويؤكد الإمام **الغزالي** على مكانة الذكر وعظمته باعتباره وسيلة من الوسائل التي تنجي العبد من كل ما يخطر له، فيقول: "ذكر الله ﷻ مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها...، وأن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى" [٦].

فالذكر هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله ﷻ إلا بدوام الذكر، فمن خلاله يصبح العبد مستغرقًا بكليته مع الله ﷻ، معكوفًا قلبه عليه، مشغوفًا به، والهًا إليه، متحققًا كأنّه بين يديه [٧].

هذا وذكر الله ﷻ لا يتحقق إلا بطريق (الخلوة)؛ وذلك حتى يستظهر بها العبد على

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٧٧/٣)، روضة الطالبين (ص١١٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة، (ص٨٩، رقم (٩٢)، ت/ مجدي السيد، مكتبة القرآن، مصر، بدون ت.

(٣) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، (ت ٢٨٣ هـ) وقيل: (٢٩٣ هـ). (طبقات الصوفية (ص٦٦).

(٤) الطبقات الصوفية (ص ٦٨).

(٥) ينظر: إحياء علوم الدين، (٢٨/٣)، (٧٧/٣)، روضة الطالبين (ص١١٧).

(٦) ينظر: إحياء علوم الدين (٣٠١/١).

(٧) ينظر: روضة الطالبين (ص٢٥-٢٦).

أعدائه، فمن خلالها يسد باب الحواس الخمس، فلا تقع تفرقة في القلب، حيث إن الجلوس مع الله ﷻ في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة، والانقطاع إليه ﷻ عمّا سواه، هو مفتاح الإلهام ومنبع الكشف [١].

ويبين **الغزالي** طريق الخلوة، فيذكر أنه يجب على الشيخ [٢] أن يلزم العبد المريد زاوية ينفرد بها، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ويلقنه ذكراً من الأذكار؛ حتى يشغل به لسانه وقلبه، ويجتهد ألّا يخطر بباله شيء سوى الله ﷻ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه: الله الله، أو: سبحان الله...، على الدوام مع حضور القلب، فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان، وتكون الكلمة كأنّها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان، وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى من القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة في القلب، وحاضرة معه غالبة عليه، قد فرغ عن كل ما سواه؛ لأن القلب إذا اشتغل بشيء خلا عن غيره"[٣].

وقد قسم الإمام **الغزالي** فوائد الخلوة إلى فوائد دينية ودنيوية:

والدينية تنقسم إلى ما يمكن وقوعه من تحصيل الطاعات في الخلوة، والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم، وإلى التخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة، كالرياء، والغيبة، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

وأما الدنيوية فتنقسم إلى ما يمكن تحصيله بالخلوة، كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة، كالنظر إلى زهرة الدنيا، وإقبال الخلق عليها، وطمعه في الناس، وطمع الناس فيه...

---

(١) ينظر: المرجع السابق (ص٢٥).

(٢) الشيخ: هو الذي سلك طريق الحق، وعرف المخاوف والمهالك، فيرشد المريد ويشير إليه بما ينفعه وما يضره، ومن علامات الشيخ: أن يكون قادرًا على كشف شبهات مريده، معرضًا عن حب الدنيا، ناهيًا نفسه عن الهوى، زاهدًا عفيفًا عما في أيدي الناس والمريدين... (اللمع (ص٤١٧-٤١٨)، معجم مصطلحات الصوفية (ص٢٤٢).

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين (١٩/٣)، (٧٧/٣).

هذا، ولا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله ﷻ، والمتمسكون بكتاب الله ﷻ هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله، عاشوا بذكر الله، وماتوا بذكر الله، ولقوا الله بذكر الله[١].

هذا والعبد في خلوته يجب عليه أن ينشغل ب- (مر اقبة الله ﷻ).

والمراقبة - كما يعرفها الإمام **الغزاليّ** - هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمم إليه، وهي حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالًا في الجوارح وفي القلب.

أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه..

وأمّا المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأنّ الله مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كلّ نفس بما كسبت، وأنّه ﷻ لهم بالمرصاد، وأنّهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وأنّهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات.

ومن باب الاستئناس استدل **الغزالي** على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ غافر: ١٩، وقال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾التوبة: ٧٨، وفي الحديث قول النبي ﷺ: **"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك"** [٢] [٣].

وقد لخص الإمام **الغزالي** ذلك بقوله: **"إن ثمرة بداية المر اقبة هورعاية الخواطر، وكشف ما التبس منها"**[٤].

(١) ينظر: المرجع السابق (٢/٢٢٦-٢٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ك: الإيمان، ب: معرفة الإيمان، والإسلام...، (١/٣٦)، حديث رقم (٨).

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/٣٠)، (٤/٣٩٤، ٣٩٨).

(٤) روضة الطالبين (ص٨٣).

وعقب المراقبة تأتي المجاهدة، فعلى العبد ألا يغفل عن مجاهدة الشيطان بدفع ما يأتي به من الشبهات والشهوات، وكبح جماح نفسه وقهرها على التحلي بالمكارم، والتخلي عن الرذائل، وحملها على المشاق البدنية ومخالفة الهوى؛ إذ لمّا كانت مهمّة الشيطان أن يجاذب القلب ويلهيه عن ذكر الله ﷻ كان لا بدّ من مجاهدته بالانقطاع عن متاع الدنيا وطيباتها، وصرف الهمة عن لذاتها وشهواتها، حتى تنقطع عن النفس الهواجس فتصبح طوع إرادته، فبالمجاهدة النفسية تحصل رياضة النفس، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله ﷻ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات: ٣٧ - ٤١ وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩

وهذه المجاهدة لا آخر لها إلا الموت؛ وذلك لأنّه لا يمكن لأحد أن يتخلّص من الشيطان ما دام حيًّا، ومن هنا فإنه لا يستغنى أبدًا عن المجاهدة والمدافعة؛ إذ أبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق، ومهما كان الباب مفتوحًا، والعدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة [١].

إذن يجب على العبد أن يراقب ربه ﷻ، وأن يحاسب نفسه ويجاهدها في كلّ وقت وحين، وفي كلّ نفس وخاطر.

وثمّة أمر آخر ينبغي التنبه له، هذا الأمر يكمن في (الزهد والانقطاع عن علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها)، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، وعدم الاكتراث بكل ما هو من الدنيا؛ فإنّ ذلك ممّا يقلل من أبواب ومداخل الوسواس إلى الباطن [٢].

<u>الأمر الثاني: التثبت والتوقف:</u>

بعد أن أوجب الإمام **الغزالي** على العبد مراقبة الله ﷻ في جميع حركاته وسكناته،

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/٣٠).

(٢) ينظر: المرجع السابق (١٩/٣) (٣/٣٠).

وخطراته ولحظاته، وعند همه بالفعل، وســعيه بالجارحة، بيّن بعد ذلك أنه ينبغي عليه أيضًا أن يتوقف عن الهمّ وعن السعي، حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله ﷻ فيمضيه، أو لهوى النفس فيتقيه.

وقد علّل ذلك بأنّ الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع فإنها تورث الرغبة، والرغبة تورث الهمّ، والهمّ يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، وعليه فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول، وهو الخاطر؛ لأنّ جميع ما وراءه يتبعه.

ويفصّل الإمام **الغزالي** ذلك فيذكر أن للعبد المراقب من عمله نظرًا قبل العمل، وذلك بأن ينظر إلى خواطره: أهي مما يحبه الله ﷻ، أو مما يكرهه مما يكون من هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحقّ، فإن كان لله ﷻ أمضاه، وإن كان لغيره استحيا من الله ﷻ، وانكفّ عنه، ثمّ لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه، وعرّفها سوءَ فعلها، وأنّها عدوة نفسها.

ثم ذكر أنّ هذا النظر في بداية الأمور واجب محتوم، لا محيص عنه، وأنّه لا يخلص من هذا إلا العلم المتين، والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال، وأغوار النفس، ومكايد الشيطان ومزالقه.. [1].

وعليه فإن **الإمام الغزالي** يطلب من العبد التثبت وعدم العجلة، أو الإقدام على أمر بعقد أو عزم بأول خاطر، دون التوقف فيه، والاستطلاع منه، حتى يتبين له من أي الوجوه هو، "وإلا لم يُؤمن عليه أن يقبل خطرة من نزغات الشيطان، أو تسويل النفس يحسبها تنبيهًا من الرحمن - جلّ ثناؤه - ، أو ينفي خطرة من التنبيه على الخير يحسبها من تسويل النفس أو تزيين الشيطان، فلن يميز بين ذلك ولا يعرفه إلا بالعلم والتثبت بالعقل، ويجعل الكتاب والسنة دليله، وإلا لم يبصر ما يضره مما ينفعه..." [2].

(١) ينظر: المرجع السابق (٤/٤٠٠-٤٠٢).

(٢) معنى التثبت: حبس النفس قبل الفعل، وترك العجلة، وهو الصبر قبل الفعل.

قال ﷺ: **"العجلة من الشيطان، والتأني من الله ﷻ"** (١).

هذا، وقد **رأى الإمام الغزالي أن التّثبت لا يكون إلا بالورع**، وعلّل ذلك بأنّه أصل العبادة وملاكها، وأصله النظر البالغ في كل شيء، والبحث التام عند كل شيء هو بصدده من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل...، فإذا كان الرجل مستعجلًا في الأمور، غير متأن، أو متثبت، لم يقع منه نظر وتوقف في الأمور كما يجب؛ فإنّه سيقع في الحرام والشبهة، وأي خير في عبادة بلا ورع؟ (٢).

ومن هنا فإنه لن يستطيع أن يميّز بين الإلهام والوسواس؛ لأنّ التمييز بينهما إنما يقع بدقيق النظر في الأحكام، وكمال العلم بالحلال والحرام (٣).

وهذا الواجب - أي: واجب التثبت والتبين - لم ينص عليه الإمام **الغزالي** فقط، بل نصّ عليه أيضا علماء الصوفية، انطلاقًا من قول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء: ٣٦ فقد قرروا في بداية الأمر أنّه يجب على العبد أن يتوقف ويزن ما يرد على قلبه بالكتاب والسنة، وأن يتهم دائمًا نفسه وخواطره(٤).

الأمر الثالث: عرض الخواطر على الشيخ:

ولأنّ المريد وحده قد لا يتمكن من معرفة خواطره والتمييز بينها فقد أوضح الإمام **الغزالي** أنه ينبغي عليه أن يقصدَ إلى شيخ مرشدٍ عارف بالله، جمع بين علم الظاهر الذي

(و)العجلة: هي المعنى الراتب في القلب، الباعث على الإقدام على الأمر بأول خاطر، دون التوقف فيه، والاستطلاع منه، بل الاستعجال في اتباعه والعمل به، وضدها: الأناة، وهي المعنى الراتب في القلب، الباعث على الاحتياط في الأمور، والنظر فيها، والتأني في اتباعها والعمل بها. (ينظر: الرعاية لحقوق الله (ص٩٢-٩٥)، منهاج العابدين (ص١٦٠).

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ب/ ما جاء في التأني والعجلة، (٣٦٧/٤)، رقم (٢٠١٢)، بلفظ: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان»، وقال: غريب.

(٢) ينظر: روضة الطالبين (ص١٣٩).

(٣) ينظر: الرسالة القشيرية (ص ١٧٠).

(٤) ينظر: الرسالة القشيرية (ص ٧٣)، الرعاية لحقوق الله (ص٩٢-٩٥).

هو علم الشـــرع، وعلم الباطن الذي هو مراعاة الخواطر، فيعرض عليه جميع خواطره وأحواله، حسنة كانت أو قبيحة، وذلك لأنّ دور الشيخ ليس دورًا علميًّا فقط، بل هو أيضًا دور تربويّ، هذا الدور ليس بالسّـــهل الهيّن، بل هو أمرٌ شـــاقٌ وصـــعبٌ؛ لأنه يتعلق بتتبع أعمال القلوب وضبطها، وبآفات النفوس وأمراضـها ومداواتها، وهي أمور صـعبة المنال، لا تكاد تتيســر إلا بعد الاســتقصــاء في الزهد والتقوى، ولا يصــل إليها إلا مَن كان قائمًا على ضبط أعمال قلبه، وحراسة نفسه [1].

ومن هنا فإنّ المريد يحتاج إلى شـــيخ وأســـتاذ يعرض عليه خواطره؛ ليهديه إلى ســـواء السـبيل، فإنّ سـبيل الدين غامض، وسـبل الشـيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شـيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة.

أمّا شـــيخه فإنّه يجب عليه أن يترفّق ويتلطّف به، وينظر ويتفرّس في حاله، ويعرف مدى ذكائه وفطنته:

- فلو علم الشـــيخ أنّه لو ترك مريده وأمَره بالفكر والذكر تنبه من نفســـه على معرفة خواطره ومدافعة هواجســـه، التي تهاجمه في خلوته لتصـــرفه عن الذكر، فينبغي أن يحيله على الفكر، ويأمره بملازمة الذكر.
- وإن علم أنّه لا يقوى على الفكر والذكر فإنه يســلك معه الطرق التي يحتملها قلبه من وعظ أو ذكر أو ما إلى ذلك [2].

هـذا ويمكن القول في نهـايـة هـذا المطلـب بـأنـه لا ســـبيـل إلى الخلاص من خطرات الشيطان الرديئة إلا أن يقطع الله عن العبد مواد الخواطر الشاغلة، وهي "**النزوع عن تلك الأســبــاب التي تنجـذب الخواطر إليهــا، ومــا لم تنقطع تلـك المواد لا تنصــرف عنهــا الخواطر**"[3]، وذلك "حتى لا يبقى في قلب العبد فتنة بشـــيء من الحس، ويكون القلب كله

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/٧٣).
(٢) ينظر: المرجع السابق (١/ ١٥)، (٣/ ٧٥ وما بعدها).
(٣) إحياء علوم الدين (١/١٦٢).

لله، فإن انتهت القواطع فإن الله بصير به، يجازيه على ذلك"[١].

وكذلك لا سبيل للخلاص منها إلا أن يمنّ الله ﷻ على العبد بالإخلاص والتوفيق؛ فإن **"للقلوب خواطر يشوبها شيء من الهوى، لكن العقول المقرونة بالتوفيق تزجر عنها وتنهى"**[٢].

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا التوفيق والإخلاص في النية والعمل.

وهكذا يتبين لنا أنّ العبد يجب عليه أن يسد أبواب خواطره الظاهرة والباطنة؛ حتى يتمكن من النجاة من هوى نفسه، ومن وساوس الشيطان وهواجسه، كما ينبغي عليه ألا يقْدم على أمر بعقد أو عزم أو فعل أو سعي حتى يتبين له موافقته للكتاب والسنة، وأن يعرض خواطره المحمودة والمذمومة على شيخه؛ ليدله على ما به يرضى الله عنه من توبة أو استغفار أو نحو ذلك، وبالتالي يحصل له النجاح والفلاح، والقبول التام من المِلِك العلّام.

وإذا كنا قد عرفنا أن الخواطر الرديئة التي ترد على قلب العبد إنما هي بسبب قلّة الذكر والفكر، وترك المراقبة والمجاهدة، وإذ قد عرفنا أيضًا أنّ أعظم علاج لتلك الخواطر إنما هو قطعها، والانشغال بغيرها من الذكر والتسبيح والاستغفار...، **فإنّ السؤال الذي ينبغي الوقوف عنده طويلًا:**

هل سيؤاخذ العبد على كلّ ما يدور في قلبه ونفسه من خواطر ووساوس أو لا؟

هذا ما سأتناوله في المطلب التالي:

---

(١) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، (٣/٢٩).

(٢) الطبقات الصوفية (ص١٣٢).

المطلب الخامس

بيانُ ما يُؤاخذ به العبدُ من الخواطرِ وما لا يُؤاخذُ به

بعد أن تحدث الإمام **الغزاليّ** عما يجب على العبد تجاه خواطره، وبعد أن بيّن السلوك الأمثل حيالها نراه يشـــرع بعد ذلك في الجواب عن الســـؤال المطروح، وهو: **هل ســـيؤاخذ العبد على كلّ وساوس قلبه وخواطره أو لا؟**

فذكر أنّ هذا أمرٌ غامضٌ؛ إذ ورد فيه آيات وأخبار متعارضـــة، التبس طريق الجمع والتوفيق بينها على فريقين:

- فريق يقول بمؤاخذة العبد على عمل قلبه وعدم العفو عنه، وقد استدلوا على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ ﴾ البقرة: ٢٢٥، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ الإســـراء: ٣٦ حيث دلّت هذه الآية على أنّ عمل الفؤاد كعمل السّمع والبصر، فلا يعفى عنه.

- وفريق قرر أنه لا مؤاخذة على وســـاوس القلب وهواجســـه، وأن عمل القلب وهمّه بالســـيئة معفو عنه، وقد اســـتدلوا على ذلك بقول النبيّ ﷺ: **"إنّ الله تجاوزعن أمتي ما حدّثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلّم"** (١).

وقوله أيضًـــا: **"إنّ الله ﷻ يقول للحفظة: إذا همّ عبدي بســـيئة فلا تكتبوها، فإن عملها فاكتبوها ســـيئة، وإذا همّ بحســـنة لم يعملها فاكتبوها حســـنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا"** (٢).

إذن نحن أمام فريقين: فريق يقول بالمؤاخذة، وآخر يقول بعدمها، وقد اســـتدل كل فريق على ما ارتآه بآيات عدة وأخبار متعددة، وكأن الفريقين يجمعهما - في نظر الإمام **الغزالي** - توهمهما التعارض بين هذه الآيات وتلك الأخبار.

---

(١) صحيح البخاري، ك/ العتق، ب/ الطلاق في الإغلاق والكره...، (٤٦/٧)، رقم (٥٢٦٩).

(٢) صحيح مسلم، ك/الإيمان، ب/ إذا هم العبد بحسنة كتبت...، (١١٧/١)، رقم (١٢٨).

أما الإمام الغزالي نفسه فقد رأى أن طريق الجمع والتوفيق بينها لا يلتبس على سماسرة العلماء بالشرع [١] - على حد تعبيره - ، فقد وفقوا للجمع بين كل تلك النصوص؛ ذلك لأنهم رأوا أنه لا تعارض بينها، وما دام الأمر كذلك فالحق الجمع بينها، لا الاكتفاء بأحدها.

ومن هنا بدأ الإمام الغزاليّ يوضح أنّه لا سبيل إلى الوصول إلى الحقّ في هذه المسألة إلا عن طريق الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من بدايتها إلى أن يظهر الفعل على الجوارح، فوجد أن أحوال القلب السّابقة على الفعل أربعة، وهي على ما يلي:

الأول: الخاطر أو (حديث النفس): هو أول ما يرد على القلب، فهو مجرد فكرة فقط، وضرب **الغزالي** مثالًا عليه بأنه لو خطر للعبد مثلًا صورة امرأة، وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها، فهذا يسمى: خاطرًا.

الثاني: ميل الطبع: هو هيجان الرغبة إلى النظر، وهو حركة الشهوة في الطبع، وصاحبه يترجح عنده أن يلتفت؛ لينظر إلى تلك المرأة، وهذا الميل ينشأ أو يتولد من الخاطر الأول.

الثالث: الاعتقاد: وهو حكم القلب وجزمه بأن هذا ينبغي أن يفعل، أي: ينبغي أن ينظر إلى المرأة، فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف والموانع؛ فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات إليها.

الرابع: الهمّ بالفعل: وهو تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه، وهذا يسمى: همًّا بالفعل وقصدًا.

وهذا الهمّ قد يكون له مبدأ ضعيف، ولكن إذا أصغى القلب ومال إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس ومحادثته لها تأكد هذا الهمّ، وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة فإن الاحتمالات ثلاثة:

١- أنّه ربما يندم بعد الجزم فيترك العمل.

٢- وربما يغفل بعارض فلا يعمل به، ولا يلتفت إليه.

٣- وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

---

(١) أي: الجهابذة النقّاد.

إذن أحوال القلب قبل العمل بالجارحة أربعة: (الخاطر وهو حديث النفس، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهم) [١].

- **ما يؤاخذ به العبد وما لا يؤاخذ به من هذه الأحوال الأربعة:**

بعد أن تناول الإمام **الغزالي** هذه الأحوال الأربعة (الخاطر، والميل، والاعتقاد، ثم الهم) بالتوضيح والتفصيل، عمد بعد ذلك إلى بيان ما يؤاخذ به العبد منها وما لا يؤاخذ به على ما يلي:

- **أمّا الأول والثاني وهما: (الخاطر والميل)** فقد قرر الإمام **الغزالي** أنه لا يؤاخذ العبد بهما، ولا يحاسب عليهما؛ لأنّهما لا يدخلان تحت الاختيار، ولا يمكن دفعهما.

وقد استدل على ذلك بقول رسول الله ﷺ: **«إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم يتكلموا، أو يعملوا به»** [٢]، وبما روي عن عثمان بن مظعون حيث قال للنب- ي ﷺ: يا رسول الله، نفسي تحدثني أن أطلّق خولة، قال: «مَهْلاً إنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ»، قال: نفسي تحدثني أن أجبَّ نفسي، قال: «مَهْلاً خِصَاءُ أُمَّتِي دُؤُوبُ الصِّيامِ»، قال: نفسي تحدثني أن أترهَّب، قال: «مَهْلاً رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الجِهَادُ وَالحَجُّ» قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال: «مَهْلاً فإنِّي أُحِبُّهُ، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لأَكَلْتُهُ، وَلَوْ سَأَلْتُ الله لأَطْعَمَنِيهِ»[٣].

- **وأما الثالث وهو (الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل)** فقد ذكر **الغزالي** أنّ هذا متردّدٌ بين أن يكون اضطرارًا أو اختيارًا، والأحوال تختلف فيه:

- فالفعل الاختياريّ منه يُؤاخذ به.

- والفعل الاضطراريّ لا يُؤاخذ به.

- **وأما الرابع وهو (الهمّ بالفعل)** فإنّه مؤاخذ به مسؤول عنه، إلا أنّه إن لم يفعل ففي

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٤١/٣)، روضة الطالبين (ص١٣١).

(٢) صحيح مسلم، ك/الإيمان، ب/ تجاوز الله عن حديث النفس ...، (١١٦/١)، رقم (١٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول (ص١٢٤٤)، ت/إسماعيل بن إبراهيم متولي، مكتبة الإمام البخاري، ط/١، ٢٠٠٨ م. قال الإمام العراقي (ت٨٠٦هـ): من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا نحوه، وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين. (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، عبد الرحيم بن زين العراقي، (٧٢٥/٢)، ت/ أشرف بن عبد المقصود، مكتبة طبرية–الرياض، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م).

عدم فعله تفصيل على نحو ما يصوّره الإمام **الغزاليّ**، حيث ذكر أنّه ينظر:

* إن كان العبد قد ترك الفعل خوفًا من الله ﷻ وندمًا على همه فسيؤجر على ذلك، فتكتب له حسنة؛ لأنّ همّه بذلك الفعل سيئة، وامتناعه عنه ومجاهدته نفسه في تركه - وهي تحتاج إلى قوة عظيمة - حسنة.

* وإن حال بينه وبين الفعل حائلٌ أو منعه مانعٌ أو عذرٌ، وليس خوفًا من الله ﷻ، فسيعاقب عليه، فتكتب عليه سيئة؛ إذ همّه فعل من القلب اختياريّ [(١)].

وهذا التفصيل فيه من الدقة والحكمة ما لا يخفى، وقد استلهمه الإمام **الغزالي** من قول الرسول ﷺ: **"قالت الملائكة: رب، ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به، فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراي"**[(٢)].

ومن قوله ﷺ أيضًا فيما يروي عن ربه ﷻ، قال: «**إنّ الله كتب الحسنات والسيئات، ثمّ بيّن ذلك، فمَن همّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله ﷻ عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة**» [(٣)].

والمعنى: أنّ من همّ بحسنة وعقد قلبه عليها، كتبت له حسنة ولو لم يعملها، ومن همّ بسيئة ولم يعملها، فلا إثم عليه، بل تكتب له حسنة كاملة، ومن همّ بسيئة وعملها أو تركها لمانع أو لعذر كتبت عليه سيئة.

ويخلص الإمام **الغزالي** من هذا كلّه إلى أن كل ما يقع تحت اختيار العبد سيؤاخذ عليه وسيسأل عنه لا محالة، إلا أن يكفره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسنة.

أما ما لا يقع تحت اختياره من أعمال القلب (من الخواطر وحديث النفس)، فإنه لا

---

(١) إحياء علوم الدين (٤١/٣ وما بعدها).

(٢) صحيح مسلم، ك/الإيمان، ب/ إذا هم العبد بحسنة كتبت...، (١١٧/١)، رقم (١٢٩).

(٣) صحيح مسلم، ك/الإيمان، ب/ إذا هم العبد بحسنة كتبت...، (١١٨/١)، رقم (١٣١).

يؤاخذ به، ولا يحاسب عليه؛ إذ المؤاخذة به تكليف لما لا يطاق.

وعلى هذا يفسر قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ الإسراء: ٣٦ فمعناه: أن العبد سيسأل عما يدخل تحت اختياره، **فعلى سبيل المثال:** لو وقع البصر بغير اختيار من العبد على غير ذي محرم فإنه لا يؤاخذ به، ولكن إن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذًا به؛ لأنه مختار، فكذلك خواطر القلب، بل القلب أولى بمؤاخذته؛ لأنه الأصل [١].

ولهذا نجد **الإمام مسلم** [٢] في صحيحه يُعَنون لترجمة هذا الباب من كتاب الإيمان بقوله: **"باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر"** [٣].

وقد نُقل عن القاضي أبي بكر [٤] قوله: "إنّ الهمّ: ما يمرّ بالفكر من غير استقرار ولا توطين، فلو استمرّ ووطن قلبه عليه، لكان ذلك هو العزم المؤاخذ به أو المثاب عليه، بدليل قوله ﷺ: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه"[٥].

فهذا نصٌّ في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار، مع أنه قُتل مظلوماً، فكيف يُظن أن الله لا يؤاخذ بالنيَّة والهمِّ؟! [٦].

هذا والله ﷻ أعلم.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٤٣/٣).

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوريّ، من أئمة المحدثين، ولد بنيسابور، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، وتوفي بظاهر نيسابور (ت٢٦١هـ). الأعلام (٢٢١/٧).

(٣) صحيح مسلم (١١٦/١).

(٤) أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة (٣٣٨هـ)، وسكن بغداد فتوفي فيها سنة (٤٠٣هـ). (ينظر: الأعلام (١٧٦/٦).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، ك/ الفتن وأشراط الساعة، ب/ إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، (٢٢١٣/٤)، رقم (٢٨٨٨).

(٦) ينظر: إحياء علوم الدين (٤٣/٣)، المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، أبو العباس القرطبي (٣٤٠/١-٣٤١)، ت/ محيي الدين ديب مستو، وآخرون، دار ابن كثير، بدون ت. وينظر أيضا: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (١٠٩/٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٤٢١هـ.

الخاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد...

فقد وفّق الله ﷻ وأعان على إتمام هذا البحث على الوجه الذي تمّ عليه، وفي نهايته أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها من خلاله، ويمكن إيجازها فيما يأتي:

- إنه قد ظهر لنا بوضـــوح أن علم **الخواطر** لم يكن غائبًا عن وعي علمائنا الأفاضـــل - رحمهم الله ﷺ - ، وإن الإمام **الغزاليّ** - بما وهبه الله من مقومات عقليّة وعلميّة - كانت له إسهاماته وإضافاته المتميزة في هذا المجال، فقد ظهرت قدرته الفائقة على تتبّع جميع مراحل الفعل الإنسانيّ، وسبر أغوار النفس، وتحليل خلجات القلوب.
- فقد نهج الإمام **الغزاليّ** منهجًا استبطانيًّا، وأجاد حين استقصى كل ما يتعلق **بالخواطر** التي ترد على القلوب، إن دل على شيء فإنما يدلّ على فهمٍ عميقٍ لها، يستطيع الإنسان من خلاله أن يطلع على نفسه، ويعاين ذاته، وينفذ إلى أعماق باطنه؛ ليستشف أنواع الخواطر التي ترد على قلبه.
- تميزت نظرة الإمام **الغزالي** إلى **الخواطر** أنها نظرة متكاملة، تسعى إلى تربية الإنسان داخليًّا وخارجيًّا، وهي أيضا نظرة دقيقة توضح ما يجب على العبد أو السالك طريق التربية تجاهها، وذلك بعرضها على الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، والمواظبة على الاستغفار والذكر، والمداومة على مراقبة النفس واتهامها، وحفظها من وساوس الشيطان ونزغاته.
- أوضح الإمام **الغزالي** أنّ **الخواطر** عبارة عن أمور تحدث في قلب الإنسان وتنقدح فيه، من خلالها تتولد الإرادات والهمم والعزائم؛ لأنها أوّل الآثار الحاصلة فيه، وهي إمّا أن تحثه على فعل أو ترك، على خير أو شر...؛ إذ هي بمثابة البذر، منها ما ينبت السعادة، ومنها ما ينبت الشقاوة، لذا فمنها الخاطر المحمود ومنها الخاطر المذموم، وذلك تبعا لمصدره، وبحسب نوع الأفعال التي يطالب بها؛ لكونه المبدأ الأول لما سيقدم عليه الإنسان من أفعال.
- بيّن الإمام **الغزالي** أنّ علم **الخواطر** يعدّ من أهم أنواع علوم المعاملة؛ وذلك لما فيه من

تجلية لأثر الخاطر في معالجة عمل القلب إلى أن يظهر الفعل على الجارحة، فمن خلاله يتحدّد مسار الفعل الإنساني، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإنه يصحح أعمال الإنسان، ويوقفه على خُدع نفسه وشهواتها، وحيل الشيطان ومكره ومكائده.

- كشف الإمام **الغزاليّ** عن أن التعرف على **الخواطر** والتمييز بينها أمرٌ شاق يتطلب جهدًا كبيرًا من قِبل العبد؛ إذ عليه الاشتغال بالذكر والفكر، والمراقبة والمجاهدة، ثم بعد ذلك يتوقف وينظر: ما كان من الله ﷻ أمضاه، وما كان من عدوّه جاهده ونفاه؛ فإنه "من راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات"(١).
- خلص الإمام **الغزالي** إلى أنّ كلّ ما لا يدخل تحت اختيار العبد من أعمال القلب فهو معفو عنه غير مؤاخذ به؛ إذ المؤاخذة به تكليف لما لا يطاق.

وأن كلّ ما يدخل تحت اختياره هو الذي يؤاخذ به ويحاسب عليه، إلا أن يكفّره بحسنة ونقض العزم بالندم حسنة، فالإنسان مسئولٌ عن الكسب المترتب على الخاطر فقط.

وبالجملة أبرز البحث إبداع الإمام **الغزالي** ومدى عبقريته في حسن عرضه وجميل إضافته، سواء من حيث التقسيمات التي ذهب إليها، أو الاستدلالات التي ارتكز عليها، وبإبداعه وإضافاته تلك بلغ مرتبة رفيعة في الأصالة والابتكار.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، (ص ١٥٤)، دار المعرفة – المغرب، ط/ ١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

فهرس المراجع

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد الزبيدي، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، دار المعرفة–بيروت، بدون ت.
- أساس البلاغة، الزمخشري، ت/محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- أصول الدين للبغدادي، ت/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م
- الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، ط/ ١٥، ٢٠٠٢م.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن ابن عجيبة، ت/ عمر الراوي، دار الكتب العلمية-بيروت.
- بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية، أبو سعيد محمد الخادمى (ت ١١٥٦هـ)، مطبعة الحلبي، ١٣٤٨هـ.
- تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، الشيخ الباجوري، ت.د/ علي جمعة، دار السلام-القاهرة، ط/ ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- تذكرة الحفَّاظ للذهبي، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط/ الرابعة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
- التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، ت/ أثر جون أربري، مكتبة الخانجي-القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- التعريفات، الجرجاني، ت/ جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط/١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٤٢١هـ.

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة – المغرب، ط/ ١، ١٤١٨هـ- -١٩٩٧م.
- حاشية العلامة مصطفى العروسي، المسماة: نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الأنصاري، ت/ عبد الوارث محمد، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/ ٢، ٢٠٠٧م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار السعادة-مصر، ١٣٩٤هـ- -١٩٧٤م.
- الخواطر، أ. د/ أحمد عرفات القاضي، بحث منشور بموسوعة العقيدة الإسلامية، إشراف أ.د/محمد مختار جمعة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-مصر، ١٤٣٧هـ- -٢٠١٦م.
- الخواطر، أ. د/ مها سمير محمد، بحث منشور بموسوعة التصوف الإسلامي، إشراف أ.د/محمد مختار جمعة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-مصر، ١٤٣٧هـ- -٢٠١٦م.
- الرسالة القشيرية، القشيري، ت. د/ عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٩هـ- -١٩٨٩م.
- الرعاية لحقوق الله، المحاسبي، ت/ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/٤، بدون ت.
- روضة الطالبين وعمدة السالكين، الغزالي، دار النهضة الحديثة-بيروت، بدون ت.
- سراج الطالبين شرح الشيخ إحسان محمد دحلان، على منهاج العابدين للغزالي، دار الفكر، بدون ت.
- سنن الترمذي، ت/ إبراهيم عطوة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي–مصر، ط/ ٢، ١٣٩٥هـ- -١٩٧٥م.
- السنن الكبرى، النسائي، ت/حسن عبد المنعم، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/ ١، ١٤٢١هـ- -٢٠٠١م.

- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/٣، ١٤٠٥هـ--١٩٨٥م.
- شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط/ ٢، ١٣٩٢هـ- .
- صحيح البخاري، ت/ محمد زهير، دار طوق النجاة، ط/١، ١٤٢٢هـ- .
- صحيح مسلم، ت الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، بدون ت.
- طبقات الشافعية، التاج السبكي، ت/ محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب، بدون ط وت.
- طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، ت.د/ أحمد الشرباصي، ط/٢، ١٤١٩هـ--١٩٩٨م.
- عوارف المعارف عبد القادر السهروردي، ت.د/ أحمد عبد الرحيم، وتوفيق وهبة، مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة، ط/ ١، ١٤٢٧هـ--٢٠٠٦م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩هـ- .
- الفتوحات المكية، ابن عربي، ت/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤٢٠هـ--١٩٩٩م.
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ت/ محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/ ٨، ١٤٢٦هـ- - ٢٠٠٥م.
- قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق، ت/ محمود بيروتي، ط/ ١، ١٤٢٤هـ--٢٠٠٤م.
- قواعد العقائد، الغزاليّ، ت/ موسى محمد علي، عالم الكتب–لبنان، ط/ ٢، ١٤٠٥هـ- - ١٩٨٥م.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب، أبو طالب المكي، ت. د/ عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط/٢، ١٤٢٦هـ--٢٠٠٥م.
- كتاب التوبة ابن أبي الدنيا، ت/ مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، مصر، بدون ت.

- كتاب الصدق، الخراز، ت.د/ عبد الحليم محمود، دار المعارف-القاهرة، ط/ ٥، بدون ت.
- كشـــاف اصـــطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، تقديم. د/ رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون–بيروت، ط/ ١، ١٩٩٦م.
- لسان العرب، محمد ابن منظور، دار صادر–بيروت، ط/٣، ١٤١٤هـ.
- لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، القاشاني، ت. د/ أحمد السايح، وآخرين، مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة، ط/ ١، ١٤٢٦هـ--٢٠٠٥م.
- اللمع، الطوسي، ت.د/عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي، دار الكتب الحديثة-مصر، ١٣٨٠هـ--١٩٦٠م.
- محاضـــرات في تاريخ الاصـــطلاحات الفلســـفية العربية، لويس ماســـينيون، ت. د/ زينب الخضيري، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.
- مختار الصحاح، الرازي، ت/ يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط/ ٥، ١٤٢٠هـ- -١٩٩٩م.
- مسند الإمام أحمد، ت/ شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط/ ١، ١٤٢١هـ- -٢٠٠١م.
- المطالب العالية من العلم الإلهي، للفخر الرازي، ت.د/ أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي-بيروت، ط/ ١، ١٤٠٧هـ--١٩٨٧م.
- معجم اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق الكاشاني، ت.د/ عبد العال شاهين، دار المنار-القاهرة، ط/ ١، ١٤١٣هـ--١٩٩٢م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط/ ٢، ١٩٩٥م.
- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية-مصر، ١٤٠٣هـ--١٩٨٣م.
- المعجم الوسـيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، تأليف: إبراهيم مصـطفى وآخرون، دار الدعوة، بدون ت.

- معجم مصطلحات الصوفية، د/ عبد المنعم الحفني، دار المسيرة-بيروت، ط/ ٢، ١٤٠٧هـ--١٩٨٧م.
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، عبد الرحيم بن زين العراقي، ت/ أشرف بن عبد المقصود، مكتبة طبرية–الرياض، ١٤١٥هـ-- ١٩٩٥م.
- المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، أبو العباس القرطبي، ت/ محيي الدين ديب مستو، وآخرون، دار ابن كثير، بدون ت.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ--١٩٧٩م.
- المنقذ من الضلال، الغزالي، د/ عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، بدون ت.
- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، الإمام الغزالي، ت.د / محمود مصطفى، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط/ ١، ١٤٠٩هـ--١٩٨٩م.
- نوادر الأصول الترمذي الحكيم، ت/إسماعيل بن إبراهيم متولي، مكتبة الإمام البخاري، ط/١، ٢٠٠٨م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٩٥٧
تمهيد اهتمامُ الصوفيّة بالخواطرِ، وبعض مأثوراتِهم في ذلك ٩٦١
المطلب الأول تعريفُ الخواطِر، وبيانُ محلّها ٩٦٨
أوّلًا: تعريف الخواطر ٩٦٨
١ - الخاطر في اللغة ٩٦٨
٢ - الخاطر في الكتاب الكريم والسنّة النبويّة ٩٦٩
٣ - الخاطر في الاصطلاح الصوفيّ ٩٧١
٤- الخاطر عند الإمام الغزاليّ ٩٧٢
ثانيًا: محلّ الخواطر ٩٧٣
المطلب الثّاني أقسامُ الخواطرِ عند الإمام الغزاليّ ٩٧٥
المطلب الثالث كيفيّة التّمييز بين الخواطر عند الإمام الغزاليّ ٩٨١
الأمر الأول: وهو للتفرقة بين خاطر الخير وخاطر الشر ٩٨٢
الأمر الثاني: وهو للتّعرف على خاطر الشر فقط ٩٨٣
الأمر الثالث: وهو للتعرف على خاطر الخير فقط ٩٨٤
المطلب الرابع واجبُ العبد تجاه خواطرِه ٩٨٧
الأمر الأول: سد أبواب الخواطر (النفسانية والشيطانية) ٩٨٧
الأمر الثاني: التثبت والتوقف ٩٩١
الأمر الثالث: عرض الخواطر على الشيخ ٩٩٣
المطلب الخامس بيانُ ما يُؤاخذ به العبدُ من الخواطرِ وما لا يُؤاخذُ به ٩٩٦
الخاتمة ١٠٠١
فهرس المراجع ١٠٠٣
فهرس الموضوعات ١٠٠٨